شارد في زمان الغُربة

رواية

كتبها/ نائل إبراهيم زيدان

البريد الإلكتروني
nael_ziedan@yahoo.com
الهاتف
002 019 55 11 410

مقدمة

الحمد لله ..

تدور أحداث هذه الرواية في مصر وأفغانستان في الفترة بين عام ١٩٧٥ وعام ٢٠٠٠، وتغوص في أعماق ذكريات بعض الجماعات الدينية من خلال مذكرات بطل الرواية.

وقد شرعت في كتابة هذه الرواية بعد أن عكفت لسنوات على دراسة تاريخ الجماعات الدينية وفكرهم وفقههم، ولم يكن أمر الكتابة يسيرًا لأني كنت أكتب بلسان إنسان أختلف معه في كثير مما ذهب إليه.

وقد يظن القارئ بي التهويل أو الاستغراق في الخيال عند وصف بعض الأماكن أو الوقائع، وليس هذا الظن بشيء فالحقيقة أكثر هولاً مما رويت.

وكان قد حفَّزني إلى كتابة هذه الرواية الرغبة في المشاركة بها في مسابقة للرواية كان قد أعلن عنها موقع الألوكة السعودي على الشبكة، وذلك مع أني لست روائيًا، ولا أميل بطبعي إلى هذا النوع من الفن الأدبي، إذ أحسبه يحمل إحدى صفات الشعر المذموم في القرآن، وهي أن قائله يقول ما لا يفعل، والله أعلم، لذا حرصت على تأريخ الوقائع الحقيقية وتجنبت اختلاق الأحداث إلا التفصيلات الثانوية لتلائم الحبكة الروائية، فأدى ذلك إلى تقديم فكر أفراد يناقض الكثير مما ألفه الناس وسلَّموا بصوابه، وفوق ذلك يشكك في الأساس الذي قامت عليه أنظمة الحكم في الدول العربية، وقد غلب على ظني أن مسلكي هذا سيجعل من العسير نشر الرواية في دولة مثل السعودية فضلا عن فوزها، ولكني درأت ظني وشاركت بها في المسابقة.

وأُقدِّم في هذه الرواية دعوة إلى الإبحار مع عقل محورها "خالد عبد الله"، وتأمُّل حاله في سياق أحداث الرواية، ليطَّلع القارئ على بعض ما تنحو إليه كثير من العقول التي يحيا أصحابها بيننا وطرائق تفاعلهم مع واقعهم، وللقارئ مطلق الحرية في تمييز صواب

"خالد" من خطئه، فالرواية لا تدعو إلى فكر "خالد" ولا إلى طريقة استجابته لما مرَّ بـــه من أحداث ولكن تعرض ذلك للتأمل، وعسى القارئ أن يخرج من تأمله برؤية أكثـــر عمقًا لنفسه وللحياة ولحالنا في هذا الزمان.

المؤلف
مصر في ٢٦ يوليو ٢٠١٠

الفصل الأول

(١)

في صيف عام ١٩٧٥كنت أجلس في محطة القطار بمدينتي الصغيرة، مدينة بنها، منتظرًا القطار المتجه إلى القاهرة، وكان ينبلج بخاطري أفكارٌ شتى هي مزيج من ذكريات ماضٍ خاوٍ يخلو من شيء مذكور وآمال غدٍ يتوارى خلف حُجُب الغيب، تذكرت دراستي بالمدرسة الثانوية التجارية، وصدمتي يوم وافت أبي وأمي المَنيَّة في حادث طريق، وتذكرت أيام فراغي عندما مكثت بلا عمل بعد انتهائي من دراستي، إلى أن دعاني عمي المقيم في القاهرة كي أعمل معه في متجره، وها أنا أشد الرحال إليه لأول مرة، وطاف بخيالي آمالٌ عريضة كثيرًا ما تاقت إليها نفسي، كانت آمال شابٍ يافع لم يتجاوز العشرين من عمره، ولم يُدرك طبيعة الحياة، ولم يُخبر مسالك أهلها، ولم يعرف ضوابط تسيير أمورها في هذا العصر، فكل منا في حداثة سنِّه يختلق صورة للحياة في مخيلته، ثم يبني على هذه الصورة خططه وتَوَقُّعه لما سيلقاه في عاجل عمره وآجله، قليل هم الذين يصيبون في تخُّيل تلك الصورة، وأكثرنا يخطئون التخيُّل فيصطدمون بواقعٍ لم يحتسبوه، ثم يعتادوه بعد زمان قد يقصر أو يطول، وتمضي بهم الحياة إلى اندماجٍ في واقعهم أو منابذته.

أخرجني صوت القطار من مستودع أفكاري، فحملت حقيبتي واتخذت فيه مقعدًا، ومضى القطار يشق طريقه إلى القاهرة، ولا يقطع صوت عجلاته المزعج سوى نداء البائعين المتجولين، كانوا يعرضون الأطعمة والمشروبات، ووجوههم شاحبة كالحة خالية من أي تعبير أو انفعال كأنهم آلات مُسيَّرة ، بدوا كدماء تسري في جسد القطار، يسيرون معه أينما سار، فأسبغ عليهم ذلك الجمود الموازي لجموده وثبات وتيرته.

وفور وصولي إلى القاهرة وجدت نفسي وسط طوفان بشري من الغادين والــرائحين، يكاد وقع أقدامهم ينوء بالأرض، كان المكان يضج بأصوات متداخلة تصل الأسماع في هيئة دوي منتظم تذوب فيه الكلمات، وتضيع في قلبه الأَفْهام.

توجَّهت إلى عنوان متجر عمي، كان متجرًا لبيع الأغذية المحفوظة في منطقة (الفَجَّالَــة) الزاخرة بالمكتبات، وهناك استقبلني عمي بترحاب بالغ قائلاً: كيف حالك يا خالــد، اشتقت إليك كثيرًا.

قلت: أحسن الله إليك، وأنا كذلك.

قال: هل وجدت مشقة في الوصول إلى هنا؟

قلت: كلا، فالمكان مشهور على ما يبدو.

قال: قد استأجرت لك غرفة لتقيم فيها مؤقتًا حتى ييسر الله الحال.

قلت: وهل تبعد كثيرًا عن المتجر؟

قال: لا، إنها مسيرة عشر دقائق لا أكثر.

وجعل عمي يتحدث عن نظام عمل متجره وعن حياته في القاهرة دون أن أعي أكثر ما يقوله، إذ أحاط بعقلي تساؤلات شتى أحكمت قبضتها عليه، وأسَّــرت إليَّ أنْ مــاذا كُتب لك أن تلقى في مجتمع لا عهد لك به، وإلى أي سبيل سيقضي الله فيــه أمــورًا كانت مفعولة، وبقيت على تلكم الحال حتى حان موعد إغلاق المتجر، فصاحبني عمي ليرشدني إلى مكان إقامتي الذي اختاره لي، كان شقة بها ثلاث غرف ويشاركني فيهــا رفيقان هما "أحمد عاطف" و"مصطفى جابر"، وقد خُصَّ كلٌّ واحد منا بغرفــة، وبعــد تعارف سريع اغتسلت ثم استلقيت على الفراش محاولا النوم دون جــدوى، كانــت الأفكار والتساؤلات لا تزال تلح على عقلي وتأبى أن تفارقه، ومضى الوقت فلم أنتبه إلا على صوت أذان الفجر، لم يكن أذانًا واحدًا، بل كان عدة أصوات أذان متداخلة، لا يكاد السامع يميز كلماتها من اختلاطها ببعضها، كان الجَهْد قد بلغ بي مبلغًا كــبيرًا، فتوضأت وصليت سريعًا في غرفتي، ثم هممت بالنوم مرة أخرى، ففاجأني صــوت أذان جديد يرتفع، كان صوتًا وحيدًا هذه المرة، وكان يعانق سكون الفجر صافيًا، أدهشني الأمر ولكني لم أحفل به كثيرًا، إذ كنت أبغي النوم، وسرعان ما اختلس النوم روحي.

استيقظت من نومي ظهرًا على صوت أصوات الأذان المتداخلة مرة أخرى، فأكلت طعامًا خفيفًا، ثم توجهت إلى متجر عمي، وفي طريقي إلى المتجر لفت نظري كهل في العقد الخامس من العمر يجلس على مقعد خشبي أمام دكان لبيع الكتب القديمة ويقرأ مجلدًا ضخمًا، ألقيت عليه السلام فلم يرد، ويبدو أنه كان مستغرقًا في القراءة فلم ينتبه إلى سلامي، وعند عودتي من المتجر مساءً وجدته لا يزال مستغرقًا في قراءته، فتبسمت من حاله، وعلى بُعد خطوات منه رأيت مقهىً يقعد فيه عشرات من العامة، منهم من يُدخِّن النارجيلة، ومنهم من يلعب النرد، ومنهم من يتعالى صوته بالصياح والضحك، بدا كأنهم قد اجتمعوا لإهدار الوقت بعد أن طُمس على أبصارهم لِيُمنعوا إدراك قيمة أوقاتهم، فغدو يتنافسون لقتلها.

ولما وصلت مسكني وجدت "أحمد" يجلس وحيدًا، كان "أحمد" شابًا في حوالي الخامسة والعشرين من العمر، يميل إلى النحافة، وكان ملتحيًا، ويوحي مظهره بالالتزام الديني،

قلت: السلام عليكم.

فلم يرد السلام، وقال: مرحبا.

فسألته: هل تقيم هنا منذ زمن طويل؟

قال: منذ عامين.

قلت: وما عملك ؟

قال: عامل بناء.

كانت ردوده موجزة، فوقع في نفسي أنه لا يريد الحديث، فصمت برهة منتظرًا أن يقول شيئًا أو يوجه إليَّ سؤالاً، فلم يتكلم، فسألته الإذن بالانصراف إلى غرفتي، فأومأ برأسه.

كان اليوم التالي يوم جمعة، وقبيل موعد أذان الجمعة رأيت "أحمد" و"مصطفى" يتأهبان للخروج إلى الصلاة ، فسألتهما: أين تنويان الصلاة؟

فرد "مصطفى": في مسجد للجماعة.

فقلت مستفسرًا: أي جماعة؟

فرد "مصطفى" مبتسمًا: جماعة المسلمين.

لم أفهم ما يقصده، فحملت قوله على المزاح، وقلت: هل يمكنني مرافقتكما؟
فرد"أحمد" هذه المرة: سيسعدنا ذلك.
وفي طريقنا إلى المسجد سألت "أحمد": من أين تأتي أصوات الأذان الكثيرة التي نسمعها ولا أكاد أرى مسجدًا حولنا ؟
قال : من مساجد صغيرة بُنيت أسفل العمائر السكنية.
وأشار بيده إلى أحدها قائلاً: كهذا الذي تراه.
وبعد خطوات قليلة دخلنا مسجدًا يقع في طريق قصير غير ممهد، وكان المسجد ضيقًا لا يكاد يتسع لأكثر من خمسين مصليًا، وتعجبت من اختيارهم لهذا المسجد مع أننا مررنا بمساجد أكثر منه قربًا واتساعًا، وعندما رُفع الأذان فيه ميَّزت صوت المؤذن الذي يؤذن متأخرًا وحيدًا لصلاة الفجر، كان يبدو لي مسجدًا فريدًا، وكان خطيب الجمعة ذا طريقة في الخطابة غير مألوفة، وكان يُكثر من استخدام مفردات وعبارات لا أستطيع فهمها لقلة حظي من العلم، ولكني لاحظت أنه يكرر كثيرًا مقولة (جماعة المسلمين)، وعقب الصلاة ارتفعت أصوات المصلين بالذكر على نحو ليس لي عهد به، وكان عددهم قليلاً لا يتجاوز الثلاثين، فأصابتني حيرة شديدة وعزمت على استيضاح الأمر من رفاقي في وقت لاحق.
وذات يوم عدت من عملي مبكرًا، فوجدت "أحمد" يجلس وحيدًا يقرأ القرآن بصوت مرتفع ، فانتظرت حتى انتهى لأغتنم الفرصة فأسأله عن ذلك المسجد الفريد.
فقلت له: ما بال المسجد الذي نصلي فيه يخالف عامة المساجد؟
قال: وكيف ذلك؟
قلت: يُؤذن فيه مرتان لصلاة الفجر، وتطول فيه الصلاة ، وترتفع أصوات المصلين بالذكر بعد كل صلاة!
قال: إنما نفعل ذلك إقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم.
فسألته: ولماذا لا تفعل المساجد الأُخَر ذلك؟
قال: لعله الجهل، أو التقليد.
تفكَّرت برهة، ثم قلت: لا أفهم مقصدك!

قال: أكثرهم يجهلون السنة، ومن يعلمها فإنه يتبع ما يجد عليه أكثر الناس وإن خالف علمه.

تفكَّرت في جملته الأخيرة، وتساءلت في نفسي: هل يمكن للإنسان أن يتبع الخطأ خشية مخالفة من حوله من الناس؟ أم أن عمل الناس يفتنه ولا يتقبل عقله اتفاقهم على الخطأ، فيتهم نفسه بالقصور في إدراك الصواب؟ بدا لي الوجه الأخير أكثر قبولاً، إذ وقع في نفسي شيء منه، وثقل عليَّ تصديق أن المصلين في هذا المسجد وحده هم الذين عملوا بالصواب دون غيره من المساجد.

لاحظ "أحمد" سهوي فقال: أين ذهبت بعقلك؟

قلت: ليس بعيدًا، وما قصة (جماعة المسلمين) التي أسمعها كثيرًا ؟

فتبسم قائلاً: نحاول تكوين نواة لجماعة مسلمة تضم المسلمين جميعًا ويقودها إمام واحد.

فقلت متعجبًا : لماذا؟

قال: اتحاد المسلمين جميعًا تحت قيادةٍ واحدة أمر شرعي واجب العمل به.

قلت ولم يفارقني التعجب: وكيف يتحد المسلمون وهم مشتتون في دول عديدة ولكل دولة حدوها وقائدها ؟

قال: هذه حدود وضعها الناس وليست مقدسة، والقادة يجب أن يوكل إليهم الإمارة من قِبَل إمام المسلمين، ولعل الله يُقدِّر الزوال لحالنا اليوم.

كان كلامه يبدو لي غريبًا، ولم أجد تعقيبًا، فتركته وتوجهت إلى غرفتي ، وكلامه يدق كالناقوس في رأسي.

ومع الوقت أُتيح لي المزيد من التعرُّف إلى "أحمد" و"مصطفى"، وتلاشى الحاجز النفسي الذي بدا لي في حواري الأول مع "أحمد"، وحدث نوع من الألفة بيننا، فعلمت أن "أحمد" غير متفق مع أسرته، وأنه يقيم منفردًا عنهم لهذا السبب، أما "مصطفى" الذي كان أكبرنا سنًا، فقد قال لي أنه جاء إلى القاهرة مهاجرًا من إحدى القرى منذ ثلاثة أشهر أملاً في إيجاد عمل، كانت لهجته في الحديث تطابق لهجة أهل القاهرة، ولا تحمل

كلماته ذلك الطابع الريفي المعروف، وكان يبدو أنه اندمج سريعًا في المجتمع الجديد واستطاع تعديل لهجته.

***

مرت الأيام، وحياتنا تمضي على نحو راتب، كنت ألتقي برفاقي عند صلاة الفجر، التي كان يقوم لها "أحمد" نشطًا، بينما كنت و"مصطفى" نتكاسل في القيام، ثم نمضي في الصباح إلى أعمالنا، وقد تجمعنا ردهة المترل لتبادل الحديث في المساء، وفي طريقي إلى متجر عمي أرى دائمًا ذلك الكهل الجالس أمام دكان الكتب القديمة ليقرأ، وأمامه يجلس رواد المقهى ليقتلوا أوقاتهم بالتدخين واللعب والأحاديث التافهة والغِيبة وتلفيق أسباب السخرية والضحك من السائرين، ومع أن المشهد كان يجمع القارئ مع العابثين في تناقض ظاهر، إلا أنه كان مشهدًا مألوفًا، فالناس لا يجتمعون على قلب رجل واحد متى افتقروا إلى سبب يجمعهم، وقد تلاشت أسباب الجمع في عصرنا هذا.

وفي أحد الأيام عدت فوجدت بين أيدي "أحمد" و"مصطفى" كمًا كبيرًا من نسخ كُتيب مطبوع، جلست ملتقطًا إحدى النسخ وكان الكتيب يحمل عنوان (لزوم الجماعة)، اطلعت عليه، فإذا به دعوة إلى الانضمام إلى جماعة المسلمين ومبايعة إمامها مع التحذير من مفارقتها، فكل مفارق لها كافر، كما تضمن الكتيب دعوة إلى اعتزال المجتمع حتى يتم التمكين للجماعة، وكان الكلام مدعومًا بأدلة من القرآن والسنة.

كان الشارع المصري بوسائل إعلامه يتداول أحاديث عن جماعة يصفها بالضلال وتنتشر في أكثر المحافظات المصرية، وتُدعى (جماعة التكفير والهجرة)، وكان يُقال أنها تُكفِّر الناس وتعتزلهم، ولاحظت التشابه بين ما ورد في الكتيب وما يُنسب إلى تلك الجماعة، فهل جماعة المسلمين هي جماعة التكفير والهجرة؟ هل كنت قريبا من هذه الجماعة دون أن أعلم؟ هكذا دارت التساؤلات في ذهني، ولكني لم أشأ أن أسأل عن الأمر بطريقة مباشرة تُسفر عن جهلي وقد تسبب حرجًا، فقلت: لماذا يشيع قول (التكفير والهجرة) بين الناس هذه الأيام؟

رد "أحمد": لأنهم يريدون تشويه حقيقتنا بإطلاق هذا الاسم.

وهكذا تيقنت أني أرافق جماعة التكفير والهجرة، ولكني وقعت في حيرة جديدة، فلست أدري هل هذه الجماعة على حق أم على باطل؟ هل ألزمها أم أعتزلها؟

قررت ألا أستعين بأحد في الحكم على فكر الجماعة، وأن أَرُد الحكم إلى نفسي، لم يكن قراري نابعًا من ثقة زائدة في النفس بقدر ما كان مبنيًا على طبيعتي المائلة إلى الشك والخوف من إتباع إنسان مُعرَّض للخطأ، أو قد تؤثِّر مصلحته في تقويمه للأمور وحكمه عليها، فأكثر الناس لا يستطيعون التجرد التام من الهوى عند رؤيتهم للأمور.

سألت "أحمد" إن كان لهذه الجماعة مطبوعات أخرى تبين فكرها، فأعطاني بعض الكتب التي وضعها إمام الجماعة، فقرأتها عدة مرات حتى استوعبتها جيدًا، وبدت لي قوية الحجة فيما ذهبت إليه، ولكني عجزت عن الحكم عليها لقلة حظي من العلم الشرعي، فرأيت إرجاء الحكم مع الحذر في التعامل مع الجماعة، فاقتصرت ملازمتي لها على صلاة الجمعة، وقد لاحظ "أحمد" و"مصطفى" ذلك الإعراض مني، فسألني "أحمد" في أحدى جلساتنا المسائية: لماذا غدوت كأن بينك وبين الجماعة شقاق؟

فاجأني السؤال، وصمت برهة أفكر في جواب مناسب، ثم قلت: ما الذي أوحى إليك بذلك؟

فقال: تخلفك عن صلاة الصبح معنا.

قلت: عندي أسبابي.

فقال: هل لنا أن نسألك عنها؟

قلت: أكره أن يطَّلع عليها أحد.

قال: أحسبها إثمًا.

وهنا دخل "مصطفى" الحوار فقال: أهو الكسل؟

قلت: أعوذ بالله من الإثم والكسل.

فقال "مصطفى": ألا تعجبك الجماعة؟

ما أسخف هذا السؤال، هكذا حدثت نفسي قبل أن أرد قائلاً: الإعجاب يُبنى على ما يدركه المرء، ومُدركات الإنسان قد يشوبها ما يُشوِّشها، فإن ميَّزت التشويش، لن تركن إلى ما أدركته.

بدا التفكير على وجه "مصطفى"، ثم تبسَّم قائلاً: لم أفهم شيئًا.

لذنا بالصمت هنيهة قبل أن يقول "أحمد": نسأل الله الهداية إلى سبيل الرشاد.

***

وبعد عدة أسابيع، وفي صلاة جمعة لاحظت غياب الشيخ "حسين" خطيب الجمعة المُعتاد، فقام أحد الحاضرين إلى الخطبة، ويبدو أنه ألقاها بغير إعداد مسبق، إذ لم يُحسنها، وتعثرت الكلمات على شفتيه، وعند عودتنا عقب الصلاة جلسنا في ردهة المترل وكان "أحمد" يبدو واجمًا شارد الذهن، على خلاف "مصطفى" الذي بدا متفائلاً كعادته، وبادرنا الكلام فقال: لا تقلق يا "أحمد"، لا أحسب الشيخ "حسين" سيطول احتجازه.

قال"أحمد": ما يقلقني هو سبب القبض عليه، فهو لم يفعل شيئًا مذكورًا.

شعرت ببعض التوتر عندما سمعت هذا الكلام ، فقلت : هل كان القبض عليه ذا صلة بانتمائه لجماعة المسلمين؟

رد "أحمد": نعم، إذ تم القبض على بعض الإخوة معه.

قلت وقد بدأ الاضطراب يظهر في صوتي: هل يعني ذلك أننا معرضون لما حدث له؟

رد "أحمد": الله أعلم.

حوَّلت بصري صوب "مصطفى" كأني أوجه له نفس السؤال، فقال: نحن في أمان إن شاء الله.

قلت: ألا تشكل جماعة المسلمين تهديدًا لنظام الحكم، فيكون كل منتمٍ لها عرضة للتنكيل؟

فتساءل "أحمد" : كيف تشكل تهديدًا لنظام الحكم؟

قلت: أليست العزلة مرحلة مؤقتة حتى يتم التمكين، والتمكين يلزمه امتلاك زمام الحكم أو الاصطدام بنظام الحكم؟

نظر إليَّ "أحمد" ذاهلاً كأنما لم ينتبه إلى هذا الأمر من قبل!

فقال "مصطفى" متسائلاً: وهل يمكن أن يحدث التمكين قريبًا؟

لم يرد أحد، وبعد برهة قلت: أرى أن نفارق الجماعة مؤقتًا حتى تتضح الأمور.

فرد "أحمد" بحدة: أنت تعلم معنى مفارقة الجماعة.
وقال "مصطفى" موجهًا إليَّ الحديث: هل حل بك الجبن؟
فقلت: افعلا ما تشاءان، أما أنا فلم أبايع للجماعة إمامًا ولا أميرًا.
وقبل أن يُعقِّب أحد، تركتهما وتوجهت إلى غرفتي لأقطع سبيل جدلٍ قد يوغر الصدور.
فلما خلوت بنفسي دار بِخَلَدي أمرٌ آخر، وهو الظن أن الأجهزة الأمنية تقوم برصد أعمال أعضاء الجماعة عن طريق مخبرين سريين، كانت فكرة عارضة في البداية ثم ما لبثت أن سيطرت على عقلي تمامًا، ولم يَسلم من شكي أحد ممن ألتقي بهم، كنت أراقب المارين في الطريق من نافذة غرفتي وكلما رأيت واقفًا أو متسكعًا ألقيت عليه من ظنوني.

***

وفي يوم الجمعة التالي استيقظت مبكرًا، فاغتسلت، وجلست في ردهة المترل، وقد عزمت على أن أصلي الجمعة في مسجدٍ غير مسجد الجماعة، وكان "مصطفى" يعاني من استطلاق البطن في ذلك الصباح، فاضطر إلى دخول الحمام عدة مرات وكنت أراقبه يتنقل بين غرفته والحمام ويبدو على وجهه الضجر، وقبل موعد الأذان بنصف ساعة خرج "أحمد" من غرفته فتوضأ، وطرق باب غرفة "مصطفى" داعيًا إياه إلى الصلاة، ثم دعاني فأبيت، فلم يلح عليَّ بالطلب، وخرج مع "مصطفى" قاصدًا المسجد، وبعد دقائق قمت فتوضأت ثم خرجت لأدرك الصلاة.
سَدَل الليل ظلمته مساء ذلك اليوم وكنت أجلس وحيداً في غرفتي، وكان الظن بتعرضنا للرصد من قِبَل الأجهزة الأمنية لا يزال يميد بأفكاري ويلقي بها وسط أمواج عاتية من التوتر، وفجأة اقتحم عقلي ما حدث صباحًا، إذ رأيت "مصطفى" يدخل الحمام ليقضي حاجته عدة مرات ثم يخرج وليس عليه أثر وضوء، ولما خرج مع " أحمد" إلى الصلاة لم يتوضأ، وكنت أعلم أن مسجد الجماعة ليس فيه مكان للوضوء، ثم تذكرت أن "مصطفى" كان يزعم أكثر الوقت أنه على وضوء، وقلما رأيناه يتوضأ، وتذكرت مخالفة لهجة "مصطفى" في الحديث للهجة أهل الريف الذي يزعم أنه أتى منه

ليبحث عن عمل في القاهرة، كانت كل هـــذه الشـــواهد تـــدعوني إلى الشـــك في "مصطفى"، والظن بأنه مكلف بالتجسس على الجماعة!

هرعت متوجهًا إلى غرفة "أحمد" الذي كان يهم بالنوم ، فقلت له هامسا: هنا أمر هام أريد أن أحدثك فيه.

فقال: دعك منه الآن، فإني متعب.

قلت دون أن يفارق الهمس صوتي: أرجوك، فالخطب خطير.

قال: قل ما عندك سريعًا.

توجهت إلى باب غرفته، فأغلقته كي لا يسمع حديثنا أحد، وســألته: هــل توضــأ "مصطفى" بعد خروجكما من المترل لصلاة الجمعة اليوم؟

فقال بصوت يوحي بنفاد الصبر: لا، كان متوضئًا.

قلت: كلا، لم يكن كذلك، إذ رأيته قبل خروجكما يدخل الحمام ليقضي حاجتــه، ولم أرَ عليه بعدها أثر وضوء.

فقال مستنكرًا : ما الذي تُعَرِّض به لي؟

قلت: لعله يتجسس على الجماعة لصالح المباحث.

فتبسم "أحمد" بسخرية وقال: شفاك الله إن كنت جادًا.

قلت: ألا تسمع لهجته في الحديث المخالفة للهجة أهل الريف، كيــف يكــون ريفيًــا ويتكلم بلهجة أهل القاهرة ، وهو لم يمكث هنا سوى عدة أشهر؟

لم يرد "أحمد"، وعلا وجهه الاهتمام، فقلت: هل رأيت بطاقة إثبات هويته؟

فرد بصوت فيه شيء من القلق: لا، ولكن صاحب المسكن لابد أن يكون قد ســجل بياناقما عنده.

قلت: فلنتحقق من الأمر.

فخرجنا متوجهين إلى صاحب المسكن، وعندما سألناه عن محل إقامة "مصطفى" ومهنته المسجلين في بطاقة إثبات هويته، أعطانا عنوانًا لقرية في محافظة الشرقية، وأخبرنــا أن مهنته المسجلة هي (طالب)، وهي كلمة يُثْبَت بها أن صاحب البطاقة لا يزال في مرحلة

الدراسة، وقد تبقى مسجلة في البطاقات بعد انتهاء الدراسة، وبعد انصرافنا قال "أحمد": يبدو أنك دفعتني إلى سوء الظن بأخي.

قلت: لا تتعجل، قد تكون البيانات المسجلة في بطاقة هويته غير حقيقية، ولا تنس أن المباحث تتبع وزارة الداخلية، وهي الوزارة المسئولة عن إصدار مثل هذه البطاقات.

قال: وماذا ترى؟ هل نتبع الظن وهو أكذب الحديث؟

قلت: بل نقطعه باليقين وهو أصدق الحديث.

قال: وكيف ذلك؟

قلت: نراقب "مصطفى" لنعرف أين يتوجه كل يوم، ونذهب إلى عنوانه لنعرف حقيقته.

قال: حسنًا، فلتراقبه أنت غدًا، أما أنا فسأذهب إلى قريته وأسأل عنه.

وفي اليوم التالي شرعت في مراقبة "مصطفى" ولكني لم أكمل المراقبة، إذ كان يتلفت كثيرًا، فخشيت أن يفتضح أمري، ورأيت انتظار عودة "أحمد"، وعند عودته في المساء اقتحم غرفتي، وكان مكفهر الوجه وبادرني قائلاً دون مقدمات: لقد تيقنت من كذب رفيقنا، فالعنوان صحيح، وهناك قابلت جيرانه، وقد أخبروني أن "مصطفى" يعمل مخبرًا في مباحث أمن الدولة وأنه يقيم في القاهرة منذ سنوات.

قلت مضطربًا: هذا ما كنت أخشاه، لقد صدقت ظنوني.

قال: وماذا سنفعل؟

قلت: فلنفتش غرفته لعلنا نجد ما يفيدنا.

قال: لن نتمكن من تفتيشها، فهو يُغلقها دائما.

قلت: كيف كانت حاله معك في الأيام الماضية؟

قال: كان يُكثر السؤال عن كل أمور الجماعة، ويحاول توطيد علاقته بالكثير منا.

قلت: أرى أن نغير مكان سكننا، ونتعلل بأي عذر.

قال: أصبت، سأبدأ من الغد في البحث عن محل آخر للإقامة، وأفارق هذا الجاسوس.

قلت: حاول أن تبقى على طبيعتك معه كي لا يشك في معرفتنا لما يخفيه.

قال وهو يهم بالانصراف: هذا ما أنوي فعله.

كان التَّطور السريع للأحداث يُعجزني عن التفكير بروية، فصرت مذبــذب الفكــر، وكانت صدمتي بأمر "مصطفى" تذهلني، ولكنها ألقت في نفسي أن الظاهر كثيرا مــا يخدعنا برونقه، وقد لا ندرك الحقيقة إلا متأخرًا، أو لا ندركها أبدًا فنعيش حياتنــا في غفلة منها، ولكن ليس لنا في الأمر شيء، فهكذا خُلــق الإنســان حبــيس حواســه المحدودة.

وفي اليوم التالي وجدت "أحمد" و"مصطفى" يجلسان يتبادلان الحديث، فجلست بــين أيديهما، ووجهت حديثي إلى "مصطفى" فقلت: ألم تعثر على عمل بعد؟

قال بصوت يوحي بالحسرة: نعم، فمازلت أبحث.

قلت: لماذا لا تعمل مع "أحمد" في تشييد الأبنية السكنية؟

قال: عرض "أحمد" هذا الأمر عليَّ من قبل، ولكنها مهنة شاقة لا يقوم لهــا إلا أولــو البأس.

قلت: وما العمل الذي يناسبك؟

قال: أنت تعلم أن منطقة إقامتنا يكثر فيها المكتبات ودور النشر، وقد استهوتني مهنــة الطباعة منذ حداثتي، وعسى أن يكون لي نصيب منها.

صمت "مصطفى" برهة كأنه ينتظر تعقيبًا، فلم يُعقِّب أحد، فاستطرد موجهًا حديثه إلى "أحمد": لعلك تساعدني في هذا الأمر.

تَصنَّع "أحمد" ابتسامة وقال بصوت ينم على عدم المبالاة: لست أدري.

وجعل "مصطفى" يوجِّه حديثه إلى "أحمد" محاولاً استدراجه بكثير من الأسئلة، بينما يرد "أحمد" بإجابات مقتضبة توحي بعدم الرغبة في الحديث، لم يكن "أحمد" مجبــولاً علــى إخفاء ما يضطرب في صدره، أما "مصطفى" فكان يجيد صُنع صورٍ كاذبة ليظهر بهــا، وهي موهبة يمتلكها محترفو التحايل والنفاق في كل العصور والأماكن، وفي زماننا كــم من متسولٍ دون حاجة أصبح ذا مالٍ ممدود بفضل تلك الموهبة، وكــم مــن إنســان ضحل العلم والثقافة اتخذها مهنة فصار مُمثلاً يُشار إليه بالبنان، ويتنــافس الــدهماء لرؤيته أينما ذهب، ويقدمونه على العلماء وأرباب الفكر، ولو علموا أن هذا الممثل ما ورث مهنته إلا من منافقي العصور الغابرة لأسقطوا عنه ثوبه الزائف.

بعد عدة أيام، وبينما كنت نائمًا بعد منتصف الليل سمعت طرقًا شديدًا على باب الشقة، فهببت من نومي فزِعًا وخرجت من غرفتي، وكذلك قام "أحمد" و"مصطفى"، وقفنا نتبادل النظرات لثوانٍ قبل أن يتقدم "مصطفى" لفتح الباب، وفجأة دُفع الباب بقوة واقتحم المكان أربعة رجال كأنهم شياطين، وقال أحدهم: مَن منكم "أحمد عاطف"؟

لم يرد أحد، فأضاف الرجل: أروني بطاقات هويتكم.

وهنا قال "أحمد": أنا "أحمد"، مَن أنتم وماذا تريدون؟

قال الرجل: تعالَ معنا، هناك من يريد أن يتحدث معك قليلا.

قال "أحمد": لن أخرج من هنا حتى تخبروني بأمركم.

فأشار الرجل إلى رفاقه قائلا: أحضروه.

فانقض الثلاثة على "أحمد" وساقوه وهو يحاول مقاومتهم دون جدوى.

وعقب انصرافهم نظرت إلى "مصطفى"، فبدت ملامحه جامدة خالية من أي انفعال، شعرت بأن نفسي تفيض ببغضه، فاستجمعت قوة ذهني وسألته: ماذا تظنهم سيفعلون "بأحمد"؟

فرد قائلاً: لا أدري.

ثم تركني ودخل غرفته، لم أستطع استئناف النوم في تلك الليلة، وعندما توجهت إلى عملي في الصباح كنت أشعر بجَهْدٍ شديدٍ يظهر جليًا على حركتي المتثاقلة، فلاحظ عمي ذلك، فأعطاني الإذن بالعودة لأنال قسطًا من الراحة، وفي طريق عودتي كنت أشعر بالحيرة، إذ لا أدري ما يجب عليَّ فعله مع "جماعة المسلمين" بعد أن تعقَّدت الأمور، فأنا مُقيَّد بقلة العلم الشرعي، ولابد لي من كسر هذا القيد بعلمٍ أتبين به الحق من الباطل، وعند مروري أمام دكان الكتب القديمة، رأيت ذلك الكهل لا يزال جالسًا ليقرأ كعادته دائمًا، فوقفت أمامه وألقيت عليه السلام، فرفع بصره ببطء ورد السلام، فسألته: هل أجد عندك كُتبًا في العلوم الشرعية؟

فقال: عندي آلاف الكتب في كل شيء، هل تريد شيئًا محددًا؟

قلت: لعلك تساعدني، فأنا مازلت في بداية طلب العلم، ولا أدري من أين أبدأ.

قال: ما رأيك لو بدأت بتفسير القرآن؟

قلت: لا بأس.

فأحضر لي تفسيرًا مختصرًا في ثلاثة مجلدات، ومع أن المجلدات كانت قديمة إلا أنه طلب مبلغًا كبيرًا من المال كثمنٍ لها، وبمشقة بالغة رضي بإعارتها لي مقابل أجر زهيد لكل أسبوع أحتفظ بها عندي بشرط أن أعيدها على نفس حالتها، حملت المجلدات كأني أحمل كنزًا ثمينًا، وما أن وصلت مسكني حتى شرعت في القراءة بنهمٍ شديدٍ، وأدهشني اختفاء الشعور بالجَهْد الذي لازمني منذ الصباح، وأثناء القراءة كنت تارة أجد مشقة في فهم الكلام، فأتوقف وأعيد قراءة الجملة عدة مرات، وتارة تقابلني كلمات أعجز عن إدراك معناها، فعزمت على شراء معجم لغوي ليكون مفتاحًا لفك طلاسم تلك الكلمات المبهمة عندي.

أصبحت أتفرغ لقراءة التفسير كل يوم عقب عودتي من عملي، وأستعين بالمعجم لفهم ما يشق علي فهمه، كان الطريق عسيرًا في البداية، ومع الوقت بدأت ألمس حلاوة كامنة في القرآن، كانت آياته تملك بروعتها أقطار نفسي، وتحتويها بسكينة لا تفارقها ليلاً أو نهارًا، وتمنحها قوةً وصفاءً ذهنيًا لم أشعر به من قبل، ولم يكن يكدر ذلك الصفاء سوى قلقي بشأن "أحمد"، وتربصي بما سيفعله "مصطفى".

***

ذات ليلة كنت أجلس لأقرأ كعادتي فسمعت طرقًا خفيفًا على باب الشقة، لم يكن "مصطفى" بالمترل، وعندما فتحت للطارق فوجئت بأن "أحمد" يقف أمامي، كانت ملابسه متسخة وممزقة ويغشى وجهه ولحيته التراب، نظر إلي بعيون مسبلة تطل من وجه زاد نحولاً، وهمت شفتاه بالتحرك دون صوت، كأن الكلمات تموت على لسانه قبل أن تولد، كان قد مرَّ ما يقارب شهرًا على ليلة اعتقاله، وها هو يعود الآن وقد دل مظهره على ما ابتلي به في الأيام المنصرمة، لم يطق "أحمد" الوقوف طويلاً فارتمى على الأريكة وتتابعت أنفاسه بسرعة، وقفت أراقبه بنظراتي ولم أستطع محادثته، إذ شعرت أن كلامي قد يُثقل عليه، وبعد برهة طلب إليَّ فنجانًا من القهوة، فأسرعت

لإعداده، وعند عودتي حاملاً القهوة، شعرت أنه لا يقدر على الكـــلام، فانصـــرفت داخلاً غرفتي.

وفي صباح اليوم التالي بدا "أحمد" قد استرد شيئًا من عافيته، وإن كان وجهه يُسفر عن آثار حزن عميق يضرب بجذوره في أعماق نفسه، ويحمل بصـــره علـــى التوجـــه إلى الأرض، كان لسان ظاهره ينطق بما يُكابده، اقتربت منه واتخذت مجلسًا بجواره وربت على كتفه، فرفع إليَّ بصره متكلفًا ابتسامة.

قلت له: كيف حالك الآن؟

قال بصوت مخفوض: الحمد لله.

سألته: ماذا فعلوا بك؟

فأشاح بوجهه عني كأنما آذاه سؤالي، ولمحت دمعة فرت من عينيه فسارع بمسحها كي لا أراها، وبعد صمت قصير قلت: هون عليك.

فقال: هل يمكنك أن تساعدني في تضميد جراح ظهري؟

قلت: نعم.

فدفع إلي بعلبة إسعافات أوَّلية ورفع قميصه، فهالني ما رأيت، كان ظهره مليئًا بالجروح والقرح والكدمات وآثار حرق، بينما كان صدره مغطى بالكثير من الضمادات، كان يظهر جليًا أنه تعرض لتعذيب شديد، شرعت في تضميد جراحه وهـــو يـــئن كلمـــا وضعت المحلول المُطهِّر فوق جرح أو قرحة، وبعد انتهائي، نظر إليَّ بامتنان ثم قال: أين "مصطفى"، لم أره منذ عودتي؟

قلت: لا أدري فهو يغيب كثيرًا بعد القبض عليك، وأحيانًا يبيت خارج المترل.

قال بصوت يفيض بالمرارة: فلندعه يمرح اليوم، فإنه لا يدري ماذا ينتظره غدًا.

قلت: عسى الله أن يهديه.

قال: (إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرًا لن تُقبل توبتهم).

قلت: وهل تحسب "مصطفى" من أهل هذه الآية؟

قال: نعم.

قلت: لعله لم يكن مؤمنًا يومًا.

تفكَّر قليلا، ثم قال: ربما.

قلت: فلندعُ الله أن يهديه.

فسكت "أحمد" وشخص بصره كأنما كره الدعاء، فتركته لألحق بعملي.

***

كان الشتاء قد حل، وكنت في أكثر أيامي أَنْكَب عن "أحمد" و"مصطفى" وأجلس وحيدًا لأقرأ الكتب التي أستعيرها من صاحب دكان الكتب القديمة، وقد كان كريمًا معي ويعطيني ما أريده ولاسيما بعد أن توطدت صلتي به وتحولت إلى ما يشبه الصداقة، أما "أحمد" و"مصطفى" فقد عجبت من أمرهما، كانا يتلازمان دائمًا، وإذا سمعتهما شعرت أن حديثهما يفيض بالمودة، كأن أمامي صورة خداع متبادل يحمل في طياته كراهية مضمرة، أو هي بغضاء ترفل في ثوب المحبة.

وفي ليلة ظلماء غاب فيها القمر، وهطلت الأمطار بشدة، وهرع الناس إلى بيوقم يلوذون بها من صيِّب السماء، طرق "أحمد" باب غرفتي بشدة، وقبل أن آذن له، دفع الباب بقوة ودخل قائلاً: لقد مات "مصطفى".

قلت مترعجًا : ماذا؟

قال: لقد مات، وضعت له سم فئران في الطعام فمات.

قلت: هل قتلته؟

قال: نعم.

قلت بما يُشبه الانهيار: لقد قُضي علينا إذن.

قال: اهدأ، أريدك أن تساعدني في حمله.

قلت بصوت مرتعش: لا شأن لي بهذا الأمر، انصرف عني.

قال: إما أن تساعدني أو تنتظر معي الحكم بالإعدام.

قلت: ابحث عن غيري ليساعدك، فما أنا بقادر على المشاركة في هذه الجريمة.

قال: ضاقت السبل، ولا أعلم غيرك مساعدًا.

قلت وأنا أشعر بأني أتجرع سكرة الموت: وما عسانا أن نصنع؟

قال: سنحمله ونضعه على عربة يجرها حمار تقف أمام المترل وعليها بعض أقفاص البرتقال، ثم نسير به إلى أول الطريق الصحراوي وندفنه في الصحراء.

قلت: وهل سينتهي أمر قتله كذلك؟ تهمة القتل ستلحق بنا عاجلاً أو آجلاً.

قال: لا يمكن إثبات القتل أصلاً إلا بالعثور على أثر للجثة، ومهمتنا هي إخفاء أي أثر لها.

قلت: أتركني أفكر قليلاً.

قال: لا وقت لدينا، الطريق طويل ولابد أن نعود قبل الصباح.

قلت: وأين جثة "مصطفى"؟

قال: على سريره.

هرعت إلى غرفة "مصطفى" لأرى الجثة، كانت ملقاة على ظهرها، ويبدو على وجهها علامات الألم، تذكرت يوم موت أبي وأمي، فقد كان ذلك اليوم هو أول عهدي برؤية من فارقت أرواحهم سياج أجسادهم، وفيه شعرت أن الموت قريب مني، وأنه قوة قاهرة تمضي في طريقها لتنال ممن أُريد به أن تنال منه، لا تفرق بين الجبابرة والمستضعفين، فكل الناس عاجزون أمامها، لا حيلة ولا وسيلة لدفعها، وها هي تنال من "مصطفى" بعد أن كان يمشي مختالاً قبل ساعات.

مددت يدي لألمس شريان رقبة "مصطفى" كي أتيقن من موته، فشعرت ببرودة جسد لا حياة فيه، سرت قشعريرة في جسدي، ونظرت إلى "أحمد" نظرة إنكار، وقلت: سأذهب لأرى الطريق.

قال: الطريق خالي، فالأمطار غزيرة، والوقت يقترب من منتصف الليل.

أسرعت إلى النافذة، ونظرت إلى الطريق، لم يكن ظلامه دامسًا، إذ تسللت إليه أضواء خافتة من مداخل المنازل وأعمدة الإنارة البعيدة، فقلت: لو خرجنا بالجثة الآن قد يرانا أحد في هذا الضوء الخافت.

قال: ليس أمامنا خيار آخر.

قلت: وأنا لن أجازف بالخروج.

صمت "أحمد" قليلاً، وبدا عليه التفكير العميق ثم قال: سأذهب إلى محـــول الكهربـــاء المغذي لهذه المنطقة وأفصل التيار الكهربي ولن يستطيع أحد إعادته قبل الصباح.

هرع "أحمد" ليفعل ما عزم عليه، فوجدت نفسي وحيدًا مع الميت، كان قلـــبي ينـــبض بشدة، وكدت أشعر أنه سيقفز من صدري فرارًا من اضطرام جوفي بلهيب الخـــوف، سارعت إلى تفتيش جثة "مصطفى" بيدين مرتعشتين حتى تيقنت أنه لا يحمل أثرًا يـــدل عليه، ثم كفنته بملاءة السرير.

مرت دقائق مضيت فيها أذرع الغرفة جيئةً وذهابًا وأنا أكابد قلقًا موحشًـــا إلى أن تم فصل الكهرباء عن المنطقة، وبعدها بلحظات عاد "أحمد" والماء يتساقط منه، فحملنـــا الجثة ووضعناها على العربة بين أقفاص البرتقال وغطيناها بالقش وجلسنا في مقدمـــة العربة، ومضى الحمار يشق طريقه جارًّا العربة، لم نشعر ببرودة المياه التي غمرتنا، كأن هول فعلنا قد دمغ إحساسنا، فتبلد شعورنا ليكون لنا نصيب مما أصاب "مصـــطفى"، وبعد ساعتين من المسير دخلنا صحراء جرداء فقطعنا فيها ميلاً أو يزيد قبل أن نتوقف.

نظر إليَّ "أحمد" وقال: هنا.

نزلنا من العربة، وشرعنا في حفر القبر وسط الرمال بأيدينا، إذ نسينا إحضار ما يعيننـــا على الحفر، وبعد ساعة من العمل المتواصل شعرت بالإعياء المدقع، وكنت قاب قوسين أو أدنى من الإغماء، فاستلقيت على ظهري، وحجبت وجهي عن عطاء السماء بيدي، نظر إليَّ "أحمد" مستنكرًا وهزني بشدة لتكاسلي، فاستجمعت قوتي وقمت إليه ولكمته بقوة في وجهه، فرمقني بغضب شديد وهو يمسح خيط من الدماء سال مـــن أنفـــه ثم استأنف الحفر وحده.

وبعد ساعة أخرى كان عمق الحفرة قد بلغ ذراعًا ونصف، فتوقف "أحمد" عن الحفـــر وسحب جثة "مصطفى" وألقاها في الحفرة وأهال عليها الرمال الصفراء الرطبة.

وفي طريق عودتنا، كنت أشعر بأني مُخدَّر تمامًا، كأني فقدت سمعي وبصري وفَرَّ عقلي إلى وادٍ منعزل ينعدم فيه الوعي، ولم أَفِق من تخديري إلا عند وصولنا منزلنا مع خيوط الفجر الأولى.

كان التعب قد تملكني، حاولت النوم فكانت عيني تغفو قليلاً فتداهمني الكوابيس فأنتبه متلفتًا حولي وتنقبض عضلاتي، كأني أتربص بمن سيثب عليَّ وثبة الموت، ولما انتصف النهار طرق "أحمد" باب غرفتي ودخل حاملاً فنجاناً من القهوة، ثم قال: اشرب هذا ليقلل إحساسك بالتعب.

قلت: سأغادر هذا المترل غدًا، لن أستطيع العيش هنا بعد اليوم.

قال: سيكون ذلك خطأً جسيمًا، يجب أن تمضي حياتنا دون تغيير كأن شيئًا لم يحدث، فأيّ تغيير لابد أن يكون له مُبرِّر، وأقل الناس ذكاءً سيربط بين مغادرتنا واختفاء "مصطفى".

تفكرت قليلاً، ورأيت قوة منطقه، فقلت بحدة: ولماذا قتلته؟

قال: لأنه خاننا.

قلت: وهل هذا السبب كاف لقتله؟

قال: نعم، فدماء الكافر مباحة.

قلت: الكافرون عندكم كُثُر، ووفق عقيدتكم العجيبة فكل من سمع بجماعتكم ولم ينضم إليها فهو كافر وكأنكم دولة الخلافة الراشدة، وكل....

قاطعني قائلاً بغضب: أصبحت عقيدتنا عجيبة الآن؟

قلت بغضب أشد: نعم، وأنت نفسك خالفتها، فوِفْق ما جاء في كُتبِكم لا يجوز لكم قتل كافر وإن آذاكم واستحق القتل، لأنكم في مرحلة الاستضعاف.

قال: مسألة قتل "مصطفى" مسألة تخصني وحدي، ولو علمت ما فُعِل بي لقلت أنه يستحق القتل ألف مرة.

سكت قليلا، فلم أُعقِّب، فاستطرد قائلاً: هل تعرف لماذا تم القبض عليّ؟

قلت بغير اكتراث: لماذا؟

قال: لأني كنت وسيطًا بين الجماعة وإحدى المطابع التي تطبع كُتبها، وقد كنت حريصًا على كتمان مكان المطبعة كي لا يتعرض صاحبها للإيذاء، فلم أَبُح به لأحد، فلما عجز مصطفى أن يعرف مكانها مني أخبر مباحث أمن الدولة بالأمر، فقبضوا عليّ لكي يُرغموني على البوح بمكانها.

قلت: وهل أرغموك؟

قال بلهجة تنم على الأسف العميق: في البداية لم يستطيعوا، فآذوني وساموني سوء العذاب، ضربوني بأحذيتهم وبمؤخرة أسلحتهم وجلدوني، سبُّوني بما لم أسمع به قط، كانوا يطفئون أعقاب السجائر في جسدي، ويسلطون عليّ مَن يمنعني النوم، حتى فقدت القدرة على التحمل وأخبرتهم بما يريدون.

سكت برهة، ثم أضاف بصوت يقطر مرارة: عندما تُمتهن كرامتك وتُعامل كأنك حشرة حقيرة لا وزن لها، ستنبت في قلبك بذرة عداوة ترويها رغبة جامحة في الثأر، فلا تلبث أن تصبح شجرة، ساقها قسوة بلا رحمة، فروعها تثبر فلا تُبقي ولا تَذر.

قلت: أعتقد أنك تتحدث عن شأن خاص بك، ولا يعنيني.

قال: عليك الآن أن تذهب إلى عملك، وتنسى ما حدث ليلة أمس.

قلت مستنكرًا: أتريدني أن أنسى؟

قال وهو يغادر غرفتي: لا تفكر فيما حدث وستجد النسيان يسيرًا.

خرج "أحمد" من المنزل، وبقيت فيه وحيدًا، دخلت غرفة "مصطفى"، كانت رائحة الموت لا تزال تفوح منها فأستشعرها بعقلي وتغشاني الرهبة، مرَّ طيف "مصطفى" بخيالي، فتسارعت نبضات قلبي، طفت بعيني في أرجاء الغرفة أتأمل متاعها القليل فلفت نظري منضدة عليها بعض الأوراق، امتدت يدي تعبث بالأوراق، فالتقطت من بينها ظرف رسالة مغلق كُتِب عليه اسم ثلاثي وعنوان في دولة العراق، كان واضحًا من اسم المرسَل إليه أنه شقيق "مصطفى"، دفعني الفضول إلى قراءة الرسالة التي لن تجد سبيلاً إلى صاحبها، ففتحت الظرف وأخرجت منه ورقة جاء فيها: (.... واعلم يا أخي أن خطابك الأخير قد ترك أثرًا بالغًا في نفسي، فقمت بتقديم استقالتي، ولكنها رُفضت، والآن أصحبت مُسَيَّرًا كالأسير لا أجد فِكاكًا من عملي، لو هربت سيُطاردونني ويحاكمونني محاكمة عسكرية.... لقد عاشرت قومًا من جماعة التكفير في الشهور الماضية لا أستطيع أن أصف لك كرمهم ونُبل أخلاقهم وسماحتهم مع ما يحملونه من توجهات دينية شاذة، عندما أخبرتهم بأني أبحث عن عمل عرضوا عليَّ المساعدة بالمال حتى أجد عملاً، رأيت قومًا يُؤثرون على أنفسهم ولو كان هم

خصاصة في زمان يُؤثر أهلُه أنفسَهم ولو كانوا يمتلكون كل زينة الدنيا ومتاعها، ما داخلني شك قط في صلاح نيتهم ولكن ليس كل مريد للحق يصيبه، كان أَحبهم إلى قلبي "أحمد" رفيق سكني الذي حدثتك عنه، لقد علمني الكثير من أمر ديني بعد عشت حياتي جاهلاً به، فخرجت من الظلمات إلى النور، كم آلمني تعرضه وآخرين للإيذاء بعد أن وشيت بهم إلى مباحث أمن الدولة.... سأتقدم بطلب لنقلي إلى عمل إداري، فإن رُفض طلبي سأتأهب لمحاكمة عسكرية فالسجن أحب إليّ من وطأة ألم الوشاية بمن أحببتهم....).

وبعد قراءتي لهذه الكلمات شعرت بانقباض شديد في صدري، وتسلل إلى الغرفة شعاع من ضوء الشمس بعد أن انقشعت غيوم السماء.

أدخلت الرسالة في الظرف مرة أخرى، وأَوْلجتُ الظرف في ظرف آخر كتبت عليه (لولا غشاوة أبصارنا ما عرفنا الندم) ودسست الظرف تحت باب غرفة "أحمد" وانصرفت، وعندما عدت في المساء سمعت صوت بكاء يشبه الأنين ينبعث من الغرفة.

(٢)

لم أكن أتطرق في حديثي مع "أحمد" إلى حادث مقتل "مصطفى"، كنا نتجاهله تمامًا كأنه لم يكن يومًا، ولا أدري ما الباعث على هذا التجاهل، لعلها الرغبة في درء تلك الذكرى إلى ظلمات النسيان لئلا تبقى حاضرة فتُأجج آلامنا باضطرامها، ولم يأت أحد لسؤالنا عن غياب "مصطفى"، وقد أوقع ذلك في نفسي حيرة بالغة، إذ خالف ما انتظرته.

كنت و"أحمد" نمضي إلى أعمالنا نهارًا ونلتقي ليلاً ندرس الكتب التي أستعيرها من دكان الكتب، كنت أريد أن أصل معه إلى اتفاق في الحكم على جماعة التكفير والهجرة، وبدا لي ذلك يسيرًا، إذ كان من أسس منهج الجماعة تكفير المقلدين في الدين، وكانت هذه القاعدة هي السبيل إلى الحكم على فكرها دون قيود من فهم أحد يَلزمنا تقليده ولو كان إمام الجماعة، فكأن منهج الجماعة كان قد بُني على ما يهدمه، وذلك على خلاف أكثر الفرق الدينية التي تُلزم أتباعها بالتقليد.

كان "أحمد" أكثر مني علمًا وفقهًا، وكنا نمضي ليلنا نقرأ ونناقش، وبعد مجادلات شاقة توصلنا إلى اتفاق على أن جماعة التكفير والهجرة ليست جماعة المسلمين التي يجب على المسلم لزومها، وما جماعة المسلمين الحقيقة إلا دولة خلافة تستمد وجودها من التمكين وتستمد شرعيتها من العمل بالكتاب والسنة، ومن ثَمَّ فلا وجود لها بغير تمكين وقوة وحدود وإمام يسوسها، وكل ما عدا ذلك لا يتعدى فِرَقًا أو شيعًا أو مسلمين متفرقين.

في البداية كانت دولة الخلافة الإسلامية لا تتعدى أن تكون منظومة نظرية نتخذها مادة للنقاش، ثم بدأت نفسي تهفو إلى تلك الدولة الغائبة، تمنيت لو تجاوَزَت أسوار الخيال لتصبح واقعًا نحياه، ودبَّ في قلبي حنين لها يغشاه الضعف ويحيط به الحسرة، ولم يمنعني ذلك من أن أقيم تلك الدولة في مخيلتي، وألوذ بها فرارًا من وطأة واقعٍ لا تجد إليه سبيلاً.

***

وذات يوم عقب صلاة الجمعة، كنت أقف أُقلِّب بعض الكتب في دكان الكتب القديمة، وتجري عيني على بعض سطورها محاولاً أن أَحُوط علمًا بشيء من محتواها،

ليكون ذلك ضابطًا لما أختاره للاستعارة من بينها، وأخبرني صاحب الدكان أنه سيمضي كي يُحضر بعض المياه المثلجة عساها أن تخفف من لهيب زفرات رياح الصيف الساخنة، وبينما أنا على هذه الحال دخل شاب فطلب كتابًا لابن القيم، كان شابًا نحيفًا، يرتدي جلبابًا قصيرًا ناصع البياض، ووجهه مُزيَّن بأثر السجود ولحية كثة، فأشرت إليه أنْ انتظر قليلاً حتى يعود صاحب الدكان، فخاطبني قائلا: لم أَرَك في الدكان من قبل، أأنت حديث العهد بالعمل هنا؟

قلت: كلا، ما أحضرني هنا إلا ما أحضرك.

فتبسم وقال بمودة: أنا أخوك "حمزة الأناضولي" من منطقة (العَتَبَة).

قلت متبسمًا بدوري: وأنا "خالد عبد الله" من مدينة (بنها).

قال رافعًا حاجبيه بدهشة : بنها؟

قلت: نعم، أيدهشك ذلك؟

قال بصوت يشوبه الحياء: لا..لا.

ثم استطرد: وهل تأتي كثيرًا إلى القاهرة ؟

قلت: أنا مقيم هنا منذ عام أو يزيد.

قال: لأجل العمل أم الدراسة؟

قلت: العمل.

قال: وأين تصلي؟

قلت: في مسجد قريب.

قال: هل تعرف مسجد الرحمة؟

قلت: كلا.

قال: هناك درس أسبوعي يوم الجمعة عقب صلاة المغرب في مسجد الرحمة، فهل هناك ما يعيقك عن حضوره؟

قلت:كلا، صِف لي مكانه؟

فوصف لي "حمزة" مكان المسجد على عجل، إذ كان صاحب الدكان قد عاد فباع له الكتاب الذي جاء لأجله طالبًا.

لم يكن مسجد الرحمة بعيدًا، ولما عرضت على "أحمد" حضـــور درس الجمعـــة لم يُبـــدِ اعتراضًا، شعرت بأن درس الجمعة طوق نجاة سينتشلنا من وحشة عزلتنـــا، بعـــد أن فارقنا جماعة التكفير والهجرة وعكفنا على طلب العلم في مترلنا.

كان مسجد الرحمة كبيرًا، أورثني هيبة عندما دخلته لأول مرة، وبعـــد انقضـــاء درس الجمعة صلينا العشاء، ثم بدأ رواد المسجد يتصافحون بوجوه يعلوها البشاشة وتنضـــح بالمحبة كأنهم جميعًا أصدقاء مقربون، نظرت إلى "أحمد" نظرة يشوبها شيء من الخجل، إذ لم يأت أحد ليصافحنا، فتبسم كأنه علم ما في نفسي، ومد يده ليصافحني بشوقٍ كأنه لم يرني منذ زمن بعيد، وبينما نحن في تَصَنُّعِنا شعرت بيدٍ توضع على كتفـــي فالتفـــت لأجد "حمزة" بين يديَّ متبسمًا، فعرَّفته إلى "أحمد"، وبعد حديث قصير طاف بنا علـــى رواد المسجد لنتعارف، كان "حمزة" ذا أدب جم، أسمعه فأخال كلماته تنفذ بوقعها إلى القلب فاتحة أقفاله.

***

دنا شهر رمضان، وأصبح لا يحول بيننا وبينه سوى أيام قلائل، وذات جمعـــة عقـــب انتهاء الدرس قام أحد المصلين بتوزيع (إمساكية) رمضان على الحاضرين، وفي طريـــق عودتنا كان "أحمد" يتأمل (الإمساكية) التي تحدد مواقيت الصلاة وموعد الإمساك عن الطعام قبل أذان الفجر بعشرين دقيقة، ثم تنهد بعمق وقال بصـــوت آســـفٍ: بدعـــة جديدة.

حفزني قوله إلى النظر في (الإمساكية)، رحت أتأملها، وأتتبع بعيني ســـطورها، فوقـــع بصري على كلمات كُتبت على ظهرها تحت عنوان (ميثاق العمل الإسلامي)، جاء من بينها: (غايتنا:تعبيد الناس لربهم، إقامة خلافة إسلامية راشدة على منـــهاج النبـــوة)، كانت الكلمات مذيلة بتوقيع (الجماعة الإسلامية)، أثارت الكلمات في نفسي حنينًـــا دفينًا، فها أنا أجد من يشاركني في غاية إقامة دولة الخلافة، ثم شعرت بأني أدخل لُجَّـــة عميقة من الحيرة، فما معنى هذا التوقيع الغامض؟ هل الجماعة الإسلامية فرقة جديدة؟، نظرت إلى "أحمد" لعلي أجد عنده ما يدرأ حيرتي، فســـألته: هـــل سمعـــت بالجماعـــة الإسلامية من قبل؟

قال: نعم، ألا تعلم أن مسجد الرحمة يتبعها؟

قلت: نعم، من أين لي العلم؟

فحدجني ببصره وقال: سبحان الله.

قلت مُغيرًا سياق الحديث: وماذا تقول في أمر هذه الجماعة؟

قال: تجمع بين الصواب والخطأ.

قلت: وما الخطأ؟

قال: التقليد.

ولوَّح (بالإمساكية) مستطردًا: وهذا خير شاهد.

قلت: أطمع في زيادة بيان.

تنهد بعمق، وبدا أنه يستجمع أفكاره، ثم قال: عندما ينشأ الإنسان وسط طوائف مجتمعة من البشر فإنه يميل بطبعه إلى مسايرة التوجهات الاجتماعية أو الدينية أو الفكرية الشائعة في مجتمعه، فيدين بها دون تَفَكُّر إيمانًا منه بأن هذه التوجهات إنما هي ثمار العقول النيرة، ولولا صوابها ما حققت ذلك الشيوع، فحري به أن يتَّبع ما أجمع أولو العقول على صوابه.

سكت برهة، ونظر إليَّ، فأومأت برأسي مشجعًا إياه على الاسترسال فقال: أقرَّت طائفة تفضيل الإمساك عن الطعام قبل أذان الفجر بعشرين دقيقة، وأقرَّت طائفة أخرى للفجر أذانًا واحدًا، واتبع آخرون أولئك وهؤلاء دون تَفَكُّر، فشاع الأمر ولزم الباقون إتباعه، فوصلتنا هذه (الإمساكية)، وقِس على ذلك ما لا يُحصى مما يشيع في بلادنا، وعند الجماعات الدينية سنُحدث تعديلاً يسيرًا، ونستبدل أقوال كبراء الجماعة بالتوجهات الشائعة.

قلت: وما الأخطاء الأخرى؟

قال: أحسبك تعلم الخطأ الأكبر لكل الفرق والجماعات!

قلت: أهو تفريق الدين؟

قال: نعم.

قلت: أترى الجماعة الإسلامية تفرق دينها؟

قال: لا، فالجماعة المفرقة لدينها تجعل من نفسها الغاية والُمنتهى ولا تُجيز لأحد مجاوزها إلى جماعة أخرى أو غاية أسمى، فهي تقوم على التميز لا الاتحاد، وهذه الصفة لا تكون إلا لدولة الخلافة الراشدة.

قلت متبسمًا: هذا ما أقنعتك به بعد جدال مرير، هل تذكره؟

فتبسم بدوره قائلاً: وهل ذلك مما يُنسى؟

كنا قد وصلنا مترلنا، فجلسنا في ردهته، ثم قلت: هل تحسب عمرنا سيطول حتى نرى دولة الخلافة؟

قال: ذلك من أنباء الغيب، ولا يعلمها إلا الله.

كنت أحوم بقلب كسير حول أمنية إقامة دولة الخلافة الإسلامية، فهي أمنية حُرِمَت السبيل إلى تحقيقها، وليس للإنسان ما تمنى متى عُدم السبيل إليه، إن أفكارنا تُساق دائما للطواف بما نتمناه وإن كان بعيد المنال حتى نناله أو ننساه، ولكن ليست كل الأماني سواء، فلم تكن أمنيتي مما يُطوى في غياهب النسيان وإن طال العهد بانتظارها.

***

في اليوم الثاني من شهر رمضان دعانا "حمزة" إلى الإفطار في مترله، وفي جو مُشبَّع بالمودة أفطرنا، وجرت ألسنتنا بحديث طيب، حتى إذا انتهينا من طعامنا قال "حمزة": شرع بعض إخواننا في إعداد أسباب القوة لأجل الجهاد في سبيل الله.

فتساءل "أحمد": وماذا أعدوا من تلك الأسباب؟

رد "حمزة": جمعوا المال والسلاح وتدربوا على استخدام الأسلحة، وأخرجوا فقه الجهاد من لُجَّة الكتمان.

نظر إليَّ "أحمد" نظرةً ذات معانٍ مبهمةٍ، ثم قال: ألا يُحظر حيازة الأسلحة على غير العسكريين؟

رد "حمزة": بلى.

قال "أحمد": قد يتعرض هؤلاء الإخوة بذلك إلى التنكيل من قِبَل أصحاب السلطة.

فقال "حمزة" متبسمًا: فالله خيرٌ حافظا.

مرت برهة من الصمت، فأردف قائلاً: وددت لو لحقتما بالتدريب، فمازلنا نعاني من نقص العدد.

كنت أتابع الحوار صامتًا، وما أن سمعت تلك الدعوة حتى خرجت من صمتي، وسألت بصوت يخالطه الشغف: هل يتدرب هؤلاء الإخوة تحت راية الجماعة الإسلامية؟

فرد "حمزة": كلا، بل تجمعوا من روافد عديدة رافعين راية الجهاد.

تساءلت: وأين يتدربون؟

فأجاب"حمزة": في جبل (المُقَطَّم).

قلت: وما غايتهم؟

قال: إسقاط الحكومة وإقامة خلافة إسلامية.

كان وقع هذه الجملة شديدًا، فخيم علينا صمت طويل ثقيل، فقطعه "حمزة" قائلاً: هل ستنضمون إلى تدريباتنا؟

فرد "أحمد": ذرنا نبحث الأمر.

تفكَّرت مليًا في كلام "حمزة"، شعرت أنه يعرض علينا المضي في طريق معقد تعقيدًا شديدًا وينذر بمصاعب جمة، وبدا أن هؤلاء المتدربين على القتال تأخذهم حماسة هوجاء لا يعلمون عاقبتها، وهم بين أمرين إما أن يظلوا محدودي العدد والعدة، كي يستطيعوا العمل في الخفاء أو يكثروا فيُفتضح أمرهم عند السلطات الحاكمة فيُنَكَّل بهم ويُشرَّدون.

وما أن عدت مع "أحمد" إلى منزلنا حتى وجدته يسبقني إلى الولوج في الأمر، فقال: ذكرتني دعوة "حمزة" بأحداث الفنية العسكرية.

صمت برهة، إذ مرَّ بذاكرتي الحادثة الشهيرة التي وقعت قبل عامين عندما حاول مجموعة من طلاب الكلية الفنية العسكرية الاستيلاء على الأسلحة والمدرعات الموجودة في الكلية واستخدامها في القبض على رئيس الجمهورية مع كبار قيادات الدولة أثناء اجتماعهم، لإجبارهم على التنازل عن الحكم، ثم تعيين رئيس جديد للبلاد يلتزم بإقامة حكومة إسلامية، ولكن باءت محاولتهم بالفشل بعد أن قُتل نصفهم.

قلت: لا يخفى عليَّ خطورة الأمر، وعدم جدواه، ولو قُدِّر لتلك المجموعة قتال الحكومة فستلقي بأيديها إلى التهلكة لعدم التكافؤ العددي، وقد تُهدر دماء رجالٍ يسجدون لله من الجانبين.

شخص "أحمد" ببصره، ثم قال: كم تمنيت عرضًا كهذا الذي أتانا.

فاجأتني مقولته، فسألته: أتشير إلى قبولك اللحاق بهم؟

قال: نعم، فعرضهم أخرج من مكامن نفسي رغبة دفينة في الثأر.

قلت: سحقًا لتلك الرغبة، ألم يَكْفِك ما فعلته "بمصطفى".

قال: ما زالت فروع الشجرة تبحث عمن تثبره.

قلت: وهل ستسلم أنت من الثبور؟

قال: لو مات الخوف في قلوبنا لاقتحمنا المهالك آمنين.

قلت: وكذلك لو علت الغشاوة أبصارنا لاقتحمنا المهالك آمنين.

فنظر إليَّ بحدة، ولاذ بصمتٍ غامض.

كنت أعرف معنى هذه النظرة المتبوعة بالصمت، فأحسست بيأس عميق يتملكني، ولم أعد أرجو أملاً في ثَنْي "أحمد" وقد علمته عنيدًا، فقلت له: عليك بصلاة الاستخارة قبل المُضي في الأمر، وعسى الله أن يصرف عنا الشر.

***

أشرق صباح يوم الفطر، وخرج الناس من ديارهم خفافًا وثقالاً، مكبرين مهللين، مهطعين صوب الميادين لأداء صلاة العيد، وتلفَّعت الطرق بجموع السائرين، وغشيتهم خيوط الشمس الأولى فبثت فيهم غبطة وفرحة، وتضوع النسيم بشذا الطِّيب.

وبينما كنت أقف مع "أحمد" عقب الصلاة أقبل علينا "حمزة" باسم الثَّغر، ينطق وجهه بالحب والشوق، وبعد عبارات التحية والتهنئة المعتادة قال "حمزة" موجهًا حديثه إليَّ:

لماذا لم تلحق بالمتدربين على القتال كما فعل أخونا "أحمد"؟

قلت: هذا الطريق يُنذر بخطر مُحدِّق، ويبدو لي غير مُجْدٍ.

قال: وما الطريق الذي تحسبه مجديًا؟

صمت هنيهة أفكر قبل أن أقول: الصَّدْع بوعظ رجال الحكم ودعـوهم إلى العمـل بالكتاب والسنة حتى يتبين لهم الرشد من الغي.

قال: قد فعلها قوم قبلنا، فما أغنت النُّذر.

قلت: وقد قاتل قومٌ قبلكم أهلَ الحكم، فما أغنى القتال، فأي السبيلين أحق أن يُتَّبع، سبيل يَسْلم أهلُه أم سبيل يُنذر بالهلاك؟

قال: والله ما سَلِم أهل الدعوة، بل عُذبوا وطوردوا في البلاد، وامتلأت بهم السجون، وما نُقِم منهم إلا أن يدعوا إلى إقامةِ حد شرعي أو منع تصنيع الخمور وبيعها جهارا أو إغلاق بؤر الفسق والفجور.

قلت: ذلك أنهم لم يُحسنوا الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، فأغلظوا القول وارتدوا ثياب المعادين الكارهين.

قال: الدعوة وحدها لن تقيم خلافة إسلامية تضر المصالح العاجلة للحاكمين.

فوقع قوله في نفسي وقعًا أثار شجوها، فقلـت: عسـانا أن نُعَبِّـد الطريـق للـذين سيخرجون من أصلابنا، فيقيموها.

قال: أنت تُعطِّل العمل بأمر الله لنا بالإعداد والجهاد.

قلت: لا أعطله، ولكن الجهاد يلزمه حُسن التوجيه.

قال: أرأيتنا لا نُحسن توجيه الجهاد؟

قلت: نعم.

قال: وكيف ذلك؟

قلت: فلنقل مثلاً إن فريقًا يريد اتخاذ سبيل القتال لإسقاط الحكومة مثلكم، ألا يتفـق بذلك أحد أهدافه مع أهدافكم؟

قال: بلى.

قلت: ولنقل مثلاً إن هذا الفريق يخشى قوة الحكومة وبطشها، فأعرض عن قتالهـا إلى حين، فمتى تحسبه سيشرع في الانقضاض عليها؟

قال: عندما تضعف الحكومة.

قلت: ألا ترى إن قتالكم الحكومة سيؤدي إلى هذا الضعف؟

قال: بلي

قلت: إذن فقتالكم الحكومة سيكون لصالح هذا الفريق، إذ سيمهد لــه الطريــق إلى الانقضاض عليها.

قال: هذا صحيح، ولكن ما الصلة بين افتراضك هذا وإحسان توجيه الجهاد؟

قلت: لو قلنا إن هذا الفريق هو إسرائيل هل ستدرك الصلة؟

صمت "حمزة" برهة، ثم قال: لو نعلم طريقًا إلى اليهود لقاتلناهم، ولكن عُدمنا الطريق إليهم، فكان إسقاط الحكومة هو السبيل الذي سيفتح الطريق إلى قتال اليهود.

قلت: أراك أقررت بأن إسرائيل ستنقض متى ضعفت الحكومة، وأن قتالكم الحكومــة سيكون لصالح اليهود، فلا تبنِ أملاً على وهم.

كان "أحمد" يستمع إلى حوارنا صامتًا، ولما نحا الحوار إلى هذا النحو تدَخَّل قــائلاً: لا صلة بين توجيه الجهاد والإعداد له، فمن أراد الجهاد سيعد له العــدة، وعنــد إتمــام الإعداد يمكن بحث مسألة التوجيه.

قلت: وهل يمكن إتمام الإعداد على أرض كارهِيه بعيدًا عن العيون الراصدة؟

شخص "أحمد" ببصره كأنما تذكر أمرًا، ثم قال: ربما.

قلت: كأنك تتناسى!

قال: فلنفقأ العيون الراصدة كي نُتم الإعداد آمنين.

قلت: أخشى أن تكون غايتك هي الفَقْأ وحده.

نظر "أحمد" إليَّ طويلاً، ثم لاذ بالصمت، فسكت ولم يُعقِّب.

كان "أحمد" ذكيًا يُحسن النظر إلى الأمور، وكان شديد الشكيمة لا يردعه رادع عما عزم عليه، وإن أخطأ لا يستكبر أن يرجع إلى الحق ،كَيَوْم أقرَّ أنه ما كان له أن يقطــع رحِمَه ويُفارق أسرته إتباعا لمنهج جماعة التكفير والهجرة، فلم يكن يحيد به عن ســبيل الحق هوى ولا كبر، كنا نختلف في كثير من الأمور، فنرد ما تنازعنا فيه إلى الله ورسوله حتى يُفصل النزاع ويقر أحدنا بخطئه، ولكن لم نتفق هذه المرة، إذ أصرَّ على أن يسلك طريق السلاح، تدفعه الرغبة في الثأر ممن ساموه سوء العذاب دون ذنب اقترفه، كانت

تلك الرغبة تُغرر به وتُعمي بصيرته عن رؤية المخاطر رؤية صافية لا تكــدرها غيــوم عقله، أو لعله لبث يخدع نفسه مُكذبًا ما أدركه عقله.

***

أصبح "لأحمد" موعد ثابت للتدريب صباح يوم الجمعة، فكنت أرى عينيــه تفيضـــان بالحماس عقب صلاة صبح ذلك اليوم، ويظهر على وجهه آيات السعادة، وينبض قلبه فرحًا، ويشرع في رحلته إلى ميدان التدريب فيبدو كأنه ذاهب ليدرك فوزًا عظيمًـــا، وكنت على نقيضه في ذلك اليوم، أنتظر عودته ساعاتٍ تنطوي بطيئة ثقيلة، وتضـــل أفكاري بين أطياف القلق والحيرة ثم لا تلبث أن تنجذب بشدة إلى مكامن الخوف، فلا أملك إلا الدعاء له بالخير وصرف الشر.

ومع مضي الأيام بدأت مشاعر الخوف والقلق عندي تتوارى خلف جدران من الأمن صنعها الاعتياد، فهكذا الأمور التي تبدو شديدة الرهبة في مطلعها، تزول رهبتها سريعًا عندما نألفها ويطول عهدنا بها.

وفي صباح يوم جمعة دعاني "أحمد" إلى مرافقته في ذلك اليوم استثناءً إلى التدريب، فلما أظهرت له عدم الاكتراث، ألحَّ عليَّ بالطلب، فاستجبت له، ولست أدري هل مـــنعني الحياء أن أرد طلبه، أم دفعني الفضول إلى إجابته.

وقبل مطلع الشمس مضينا في طريقنا إلى جبل المقطم حيث ساحة التـــدريب، حملتنـــا إحدى سيارات الأجرة إلى منطقة المقطم، وأكملنا الطريق سيرًا على الأقدام، كنا نسير في منطقة صحراوية تلفَّعت بالأحجار والتلال والكثبان الرملية، كانـــت الأرض مـــن حولنا مواتًا لا حياة فيها، صامتةً إلا من صفير خافت للرياح، ونداء طيـــور تحلـــق في الأفق البعيد.

صعدنا تلاً طويلا متعرجًا ولاح خلفه أرض جرداء يـــزين أديمهـــا بعـــض النباتـــات الصحراوية، ويترامى على أرجائها قوائم خشبية وكتل حجرية وعربات يجرها الخيـــل مُحمَّلة بالأسلحة الخفيفة، وقد تجمع على تلك الأرض مائة ونيف من الرجال، انضـــم إليهم "أحمد" على عجل، كانوا يعدون بخطوات سريعة في صفوف منتظمـــة، فأشـــعر بالأرض ترتج تحت أقدامهم، وتلفظ غبارها فيغشى وجوههم ولحاهم، وبعـــد حـــين

جعلوا يؤدون بعض التمارين المقوية للأبدان، ثم شرعوا في التدريب علـــى المصـــارعة والقتال اليدوي، وظلوا على ذلك حتى حان موعد استخدام الأسلحة الـــتي لم تتعـــدَّ المسدسات والبنادق الآلية، فكانوا يتدربون على المناورات ويوجهون نيران أسلحتهم إلى أهداف محددة أثناء تحركهم، كان لسان حالهم ينطـــق بصـــلابة معـــدنهم، وقـــوة عزيمتهم، وكانت روعة الإعجاب تُشعرني بحنين إلى أن ألحق بهم، ثم لا ألبث أن أُعيـــد حنيني الموءود إلى مثواه في لَحْد العقل.

(٣)

كانت الأيام الآمنة تمضي كرؤيا سريعة الزوال، ففي يوم جمعة عاد "أحمد" مبكرًا من تدريبه المعتاد، ودخل مهرولاً لاهثًا زائغَ البصر، فجلس هنيهة يلتقط أنفاسه،ثم قال: قُبِض أمس على نفر من الإخوة، فأُلغِي التدريب.

قلت بصوت متهدج: لقد صدق حدسي، وها هي العيون الراصدة لم تَنَم عنكم.

لاذ "أحمد" بالصمت، فأردفت: هل يمكن أن تُحاكموا بصنيعكم؟

قال: لا يمكن توجيه اهام لنا إلا بعد العثور على الأسلحة، لذلك تم إخفاؤها بحرص بالغ، إذ قام أحد إخواننا بإخفائها في مكان آمن لا يعلمه غيره، وقيل لي أنه ليس من المتدربين.

قلت: وماذا ستفعل؟

قال بصوت يشوبه القلق: لم أتخذ قرارًا بعد.

خرجنا إلى صلاة الجمعة قاصدين مسجد الرحمة كعادتنا، وبعد انقضاء الصلاة، اقترب أحد المصلين من "أحمد" وأَسَرَّ إليه حديثًا، فلما خرجنا من المسجد قال "أحمد": حذرني أحد الإخوة من مغبة المكوث في محل سكني الأيام القادمة، وأوصاني بمفارقته عاجلاً حتى تظهر حقيقة الأمور.

قلت: وهل ستغادر؟

قال: نعم، سأحزم أمتعتي فور عودتي، وأنصحك أن ترحل معي.

قلت: وما شأني أنا؟

قال: لو لحق بنا اهام قد يلحق بك مثله.

قلت بصوت ينم على الدهشة: وما اهامي؟

قال: اهامك أنك كتمت أمرنا ولم تشِ بنا.

قلت: إذن فلنرحل معًا.

مضينا في سيرنا، وكظمت حنقي على "أحمد" في صدري، ليته استمع نصيحتي يوم حذرته من سوء عاقبة السبيل الذي اختاره، ولكنه لم يعتد بنصحي وغلبه اندفاعه ورغبته الجامحة في الثأر، وها هو يوشك أن يفر فرار المُطارَدين دون أن يُمضي ثأره.

ولما اقتربنا من مسكننا ولم يعد يفصلنا عنه سوى خطوات قلائل، انقض علينا أربعة رجال، كما ينقض الأسد الجائع على فريسته، فأعجزوني عن الحركة، أما "أحمد" فكان سريع التصرف، إذ استطاع أن يلكم أحدهم لكمة في فكه السفلي وأدهشني أن أرى الرجل يسقط مغشيًا عليه من أثر اللكمة، ثم قام بدفع رجل آخر وانطلق يعدو، ولكنه لم يبتعد كثيرًا، إذ حاصره رجال من كل اتجاه وأمسكوا به، وكانوا يرتدون ملابس المدنيين فلم يُستطع تمييزهم.

ساقنا الرجال إلى سيارة شرطة، وكبلونا بالأصفاد، وعمدوا إلى دفعنا فيها بقوة، كأنهم يتأذّنون بمغبة مقاومتهم، انطلقت بنا السيارة تشق طريقها نحو وجهتها، وكانت وجوه الرجال يلوح عليها سعادة الظافرين وهم يحيطون بنا في صندوق السيارة الحديدي، وجهت ناظريَّ إلى "أحمد" كأني أستغيث به، ولكن وجهه كان ممتقعًا ونظراته شاردة فبدا كالغريق وسط أمواج صاخبة.

أُنزلنا من السيارة عند مركز للشرطة، ودفعنا جندي إلى حجرة فيها منضدة يجلس خلفها شرطي ذو شارب كث، قام رجل آخر بتفتيشنا، وجردنا من كل ما نحمله من نقود وأوراق وبطاقات الهوية، ولم يخفَ عليَّ دسه نقودنا في جيبه، ولاح على شفتيه ابتسامة المغتنم، وبعد انتهائه ساقنا الجندي إلى حجرة تنبعث منها رائحة كريهة ويُحتجز فيها أكثر من عشرين رجلاً، فقام بتحريرنا من أصفادنا ودفعنا داخل الحجرة، وأغلق بابها.

كانت أعين الحاضرين ترمقنا متفحصَّة، فتجاهلتها، نظرت إلى "أحمد" وأمطَرَته عيني بأسئلة لا حصر لها وعجز لساني عن بيانها، فوضع يده على كتفي متصنعًا التبسم، وقال كأنه يقرأ ما في نفسي: لا تحزن إن الله معنا.

طافت نظراتي بالحجرة، فإذا بها تكاد تئن ضيقًا بمحتجَزيها، أرضها غير مستوية، جدرانها كالحة متشققة، يشهد تساقط طلائها بما مر عليه من دهر طويل، لا يكاد الهواء يسري فيها، إذ تخلو من النوافذ إلا نافذة صغيرة ترتفع نحو ثلاثة أذرع ويُغلقها قضبان من حديد علاه الصدأ.

مشهد المحتجزين معنا أثار في نفسي اشمئزازًا، شعرت أني قُرنت بطائفة من أرباب الضلال الراسخين في الإجرام، فمنهم من تحولت جلودهم إلى لون داكن من أثر امتزاج العرق بالأتربة، ومنهم من طال شعر رأسه فجعل يحكه بقوة من حين لآخر، ومنهم من ظهر علي ساعده وشمًا خبيثًا يُسفر عن استجابته لأمر الشيطان.

كان ينبعث من الحجرة رائحة تشبه رائحة المراحيض، ففي أحد أركانها وُضِع دلو ليستخدمه المحتجزون في قضاء حاجتهم، شعرت برغبة قوية في التقيؤ، فقاومت رغبتي وأغلقت عيني محاولاً أن أوهم نفسي باعتزال هذا المكان المقزز، ولكن الرائحة النفاذة كانت تخترق حواجز العزلة المتوهَّمة.

لا أدري كم من الوقت مضي عليَّ في هذه الحجرة حين سمعت أذان العصر، بدا لي أنه يصدر من أحد المساجد القريبة، دنا مني أحد "أحمد" وقال: أمازلت على وضوئك؟

أومأت برأسي دون أن يتلفظ لساني بكلمة، كأن الكلام يأبى الخروج نفورًا من المكان.

مال "أحمد" على أحد الجالسين وسأله: هل تعرف اتجاه القبلة؟

لم يرد الرجل وجعل يحملق في وجه "أحمد" كأنه يرى مخلوقًا غريبًا، فرفع "أحمد" صوته مخاطبًا جمع الحاضرين: هل يعرف أحدكم اتجاه القبلة؟

لم يرد أحد، فكرر "أحمد" سؤاله مرة أخرى دون أن يتلقى جوابًا، فبدا على وجهه الحيرة، ووقف برهة يفكر ثم توجه إلى الباب ليطرقه بعنف صائحًا: هل من مرشد إلى اتجاه القبلة؟، وظل يكرر سؤاله حتى قال له أحد الحاضرين غاضبًا: لا تصدع رؤوسنا، لن يرد عليك أحد.

تنهد "أحمد" بعمق وزفر بقوة ليطرد ما في صدره من كمد، فاقتربت منه وهمست في أذنه: ارفعني لأنظر من النافذة عسى أن أرى ظلاً للشمس فيرشدني إلى اتجاه القبلة.

وقف "أحمد" تحت النافذة وشبك أصابع يديه، فوضعت عليها قدمي صاعدًا صوب النافذة، نظرت منها فنسيت ما صعدت لأجله، رأيت أناسًا يسيرون في كل اتجاه، لم أرَ وجوههم ولا ثيابهم ولكن رأيت حرية ينعمون بها وقد حُرِمت منها، وشعرت بمرارة القهر التي يتجرعها الأسرى والسجناء، ولم يقطع حبل تأملي إلا صوت "أحمد": هل رأيت ظلاً؟

انتبهت إلى اتجاه الظل، فترلت، وأشرت إلى اتجاه القبلة، ثم أقمت الصـــلاة، وصـــلى "أحمد" بي إمامًا مُتخذًا من الحائط سترة.

جلسنا على الأرض بعد الصلاة، بدأت أشعر بحشرات تسلل إلى جسدي، انتفضـــت واقفًا وخلعت قميصي محاولاً التخلص منها دون جدوى، جعلت أضـــرب جســـدي بيديَّ كمن به جِنَّة ولكن زحف الحشرات لم يتوقف، نظر إليَّ أحد المُحتجزين وقال: يا بني لا تخف هذه حشرات أليفة ولا تضر.

قلت بحنق شديد: إني أشعر بلدغها.

فقال: يبدو أن جسدك من الصنف الجيد الذي يطيب لها لدغـــه، بعـــد أن ســـئمت الأجساد العفنة هنا.

وارتفع صوته ضاحكًا من قوله السخيف، فكظمت غيظي ولم أتلفظ بكلمة.

وبينما أنا في شُغلي مع الحشرات إذا بالباب يُفتح ليدفع أحد الجنود بثلاثة رجـــال إلى داخل الحجرة، بدت لي وجوههم المزينة باللحى مألوفة، وتذكرت رؤيـــتي لهـــم يـــوم حضرت التدريب المسلح مع "أحمد"، اقترب منهم "أحمد" مصافحًا، وبدأ حوار هامس يدور بينهم لم يبلغني كلماته.

وبعد دقائق فُتح الباب مرة أخرى، ووقف به جندي، وقال بصوت أجش: من يســـمع اسمه يتقدم إليَّ.

ثم نادى خمسة أسماء شملتني و"أحمد" والرجال الثلاثة، فتقدمنا إليه تقدم مَنْ فقد إرادته، وسلَّم أمره لغيره ليُسَيِّره كيف شاء، قام الجندي بتكبيلنا بالأصـــفاد مـــرة أخـــرى، وخرجنا من مركز الشرطة لنركب سيارة لها مؤخرة كأنها غرفة من حديد، وكان بهـــا أربعة صفوف من المقاعد وست نوافذ ضيقة، وكانوا يسمونها (ســـيارة التـــرحيلات)، جلسنا في ذلك السجن المتنقل، وقد أُغلق بابه بالأقفـــال، وجلـــس خلفـــه جنـــديان مسلحان، كنت أشعر بالراحة لأني فارقت حجرة الحجز غير عابئ بما ســـيؤول إليـــه أمري بعد ذلك.

سارت بنا السيارة ونحن لا ندري وجهتها، وبعد فترة توقفت السيارة أمام مركز آخر للشرطة وتم فتح الباب ليُدفع رجل آخر معنا، ثم مضت السيارة تكمل طريقها، إلى أن

دخلت سجنًا مهيبًا، أسواره الهائلة يعلوها أسلاك شائكة، ويلوح من خلف الأسوار أبراج عالية يتخذها جنود الحراسة المسلحون مستقرًا لهم.

فُتح باب السيارة، ودخل إلينا ثلاثة جنود، فقاموا بربط عَصَائب على أعيننا ليمنعونا الرؤية، ثم دفعونا بقوة خارج السيارة، لم أعد أميز شيئًا حولي، فكنت أمشي خطوات قليلة فأتعثر، فتنهال عليَّ صفعات الجنود وركلاتهم وشتائمهم البذيئة التي تكشف دناءة أصلهم، صعدت سلمًا فتعثرت عدة مرات، وفي كل مرة لا أسلم من اعتداء الجنود مصحوبًا بضحكاتهم الساخرة، وبعد عناء وصلت مثواي، إذ أوقفني الجنود، وحرروني من أصفادي، ثم سمعت بابًا حديديًا يُفتح، ودفعوني داخل زنزانة وأغلقوا الباب.

كانت العصابة لا تزال على عيني، وبينما أنا تائه في ظلام العُميان، أدركت ببصيرتي كم هي جليلة نعمة البصر، تلك النعمة التي يكفرها أكثر الناس ولا يعلمون قدرها إلا إذا فقدوها.

مرت دقائق بطيئة، لم أشعر بأحد معي، أزحت العصابة عن عيني بحذر، فوجدت نفسي في زنزانة مظلمة وضيقة أقف فيها وحيدًا، كان طولها لا يتعدى ثلاثة أذرع و عرضها لا يتعدى ذراعين، بينما يصل ارتفاعها إلى ثمانية أذرع، وبها نافذة واحدة ضيقة بارتفاع لا يقل عن ستة أذرع.

كان الليل قد جثم بظلامه، وخيوط الضوء الضعيف المتسلل من النافذة لا تمكنني من رؤية موضع قدمي، فزادت الظلمة من وحشة عزلتي، أردت الصلاة، ولكني لا أدري اتجاه القبلة، هل أصلي مستقبلاً أحد الاتجاهات، أم أصلي أربع مرات لاستقبل جميع الاتجاهات، هكذا دارت التساؤلات في ذهني، ثم اخترت الثانية فصليت أربع مرات سائلاً الله أن يغفر لي إن كنت قد أخطأت في اجتهادي.

وفجأة سمعت صوت صراخ يأتي من مكان بعيد داخل السجن، كان صراخ إنسان يتألم بشدة، وتكرر الصراخ، وكان الصوت يرتد على حوائط السجن فيُحدث صداه رنينًا يوقع في نفسي خوفًا ورهبة، ثم بدأت أسمع نباح كلاب، اختلط النباح بالصراخ في

مزيج عجيب اخترق مخيلتي ليخلق فيها مشهدًا بشعًا لكلاب تنقض على إنسان عقــرًا بأنيابها وشجًّا بمخالبها.

شعرت بالعطش الشديد، واشتدت رغبتي في قضاء حاجتي، طرقت الباب بقوة قــائلاً: أريد الذهاب إلى المرحاض.

لم يُجبني أحد، وآلمتني يدي من شدة الطرق، فحَلَّ بي اليأس، وارتميت علــى الأرض، وتداعت عليَّ الهموم يؤججها مدافعتي للأخبثين وأصوات صراخ يفــيض بالعــذاب، ونباح كلاب تتأهب للنيل من فرائسها، ثم غلبني النوم.

استيقظت في الصباح على صوت صرير فتح باب الزنزانة، ودخل ضابط ومعه ثلاثــة جنود، نظر إليَّ الضابط بازدراء وقال:ما اسمك؟

قلت: خالد عبد الله.

فكتب شيئًا على أوراق يحملها، وقال: أنت رقم ٤٣.

لم أفهم معنى هذا الرقم، ولم أعبأ به، إذ كانت آلام مدافعة الأخبثين تشل تفكيري بعد أن بلغت مبلغًا يفوق قدرتي على التحمل، فقلت: أريد الذهاب إلى المرحــاض الآن، لم أعد أتحمل الانتظار.

فلم يرد الضابط، وهمَّ بالانصراف، فهرعت نحوه مكررًا طلبي، فدفعني أحد الجنــود بقسوة وأغلق الباب.

وبعد دقائق قليلة فُتح الباب مرة أخرى، ودخل جندي يحمل دلوين، أحدهما مملــوء بالماء، وأخبرني أن هذا الدلو للشرب، أما الدلو الآخر فهو لقضاء الحاجــة، وأغلــق الباب، فسارعت إلى قضاء حاجتي وشعرت بعدها براحة لم أشعر بهــا مــن قبــل، ثم وضعت فمي في دلو الماء لأشرب ما شاء الله لي أن أشربه، ثم توضأت وصليت، وبعد ساعة أُحضر لي طعامٌ من البيض و الجبن والخبز.

كان ضوء النهار قد أزاح الأستار عن زنزانتي، فرحت أتأمل جدرانها الــتي امــتلأت بالكتابة، فتحولت إلى ما يشبه صفحات الذكريات، كان بعض الكتابة محفورًا وبعضها مكتوبًا بالدماء وبعضها مكتوبًا بمواد لم أتبينها، وكان مما قرأته عليها:

(المسلمون قادمون)

(في سبيل الله قمنا نبتغي رفع اللواء، لا لحزب قد عملنا نحن للدين فداء)

(صلاح عبد المجيد الأسيوطي– الجمعية الشرعية)

(إن الحكم إلا لله)

(أخي المسلم، أنكر كل شيء عند عرضك على النيابة)

(أخي اصبر ولا تشِ بإخوانك)

(لا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون)

(لن يصيبك إلا ما كتب الله لك، فلا تخش إلا الله)

(كمال منصور مرَّ من هنا)

(اللهم ارفع عنا البلاء)

(لذكرى أيام العذاب– عصام رشاد)

(اللهم أرنا في الظالمين آية من آيات قدرتك)

ومع غروب الشمس فُتحت الزنزانة ودخل جنديان، فكبلوني بالأصفاد، ووضعوا عصابة على عيني ثم سحبوني من ثيابي وأدخلوني غرفة مكيفة الهواء، وأجلسوني على مقعد، ثم جاءني صوت يسألني: ما اسمك؟

قلت: خالد عبد الله.

قال صاحب الصوت وقد منعتني العصابة من رؤيته: ما عمرك؟

قلت: واحد وعشرون عامًا.

قال: ما عملك؟

قلت: أعمل في متجر للأغذية المحفوظة.

قال: هل تعرف تهمتك؟

قلت: لا.

قال بصوت يلوح فيه الغيظ: هل تدعي السذاجة؟

وهَوَتْ يد أحد الجنود على قفاي وهو يقول: أجب الباشا يا ابن الكلب.

فقال الضابط: هل تعرف أين أنت؟

قلت: لا.

قال: أنت في سجن القلعة، هل سمعت بسجن القلعة من قبل؟

قلت: نعم.

قال: عظيم، أنت في أسوأ سجن في العالم، لدينا من طرائق التعذيب ما يشيب له الولدان، لقد جاء هنا أشجع الرجال وصبروا على التعذيب إلى أمدٍ بعيد، ثم انهاروا في آخر الأمر وأقروا بكل شيء، المسلم لا يلقي بنفسه إلى التهلكة، فاختصر الطريق واعترف بكل شيء ولا تضطرنا إلى تعذيبك، فتُصاب بتشوه أو عجز أو تموت.

قلت: سأعترف بكل شيء.

قال: تكلم.

قلت: لا أدري عمَّ أتكلم.

فصاح بغضب: هل ستدعي السذاجة مرة أخرى، لا وقت لدينا للمراوغة، أين مخبأ الأسلحة؟ ما تفاصيل خططكم؟ ما أسماء أعضاء تنظيمكم؟

قلت: لا علم لي بمخبأ أسلحة ولا بخطط ولا بأعضاء تنظيم.

فقال بصوت هادر: يبدو أنك لم تعِ النصيحة.

ثم خاطب الجنود قائلا: خذوه إلى حجرة الزوَّار.

شعرت بيد تجذبني، وانهالت عليَّ أيدي أخرى بالصفعات، سرنا قليلا، ثم ارتقينا سلمًا، ثم تقدمنا خطوات فسمعت صوت ضربات سياط تسقط على أجساد بجواري ويعقبها صرخات الألم، شعرت بمن يجردني من ثيابي، وتم ربط يديَّ المكبلتين في شيء لم أتبينه بعد أن حجبت العصابة عني الرؤية، ثم بدأت ضربات السياط تنهال على كل مكان في جسدي.

كان الألم شديدًا، وجسدي يتلقى الجَلْدة تلو الأخرى، ضغطت أسناني بقوة محاولاً منع نفسي من الصراخ، ولكني لم أقوَ على الجَلَد طويلاً، وتحت وطأة الجَلْد خرجت تأوهاتي تشكو إلى الله إجرام الجنود الأجلاف.

وبعد نصف ساعة من التعذيب أرجعوني إلى زنزانتي، وألقوا عليَّ ملابسي، تحسَّستُ من بعض أجزاء جسدي، فوجدته متورمًا من أثر السياط، ويأبى الألم أن يفارقه، بدأت أستعيذ بالله من الألم ومن شياطين الإنس، ثم ارتديت ملابسي وصليت.

لم أستطع النوم في تلك الليلة، ومع مرور الساعات بدأت نيران الألم تخمد رويدًا رويدًا، فحمدت الله، ثم صليت الصبح، وغلبني النعاس، لم أدرِ كم من الوقت نمت، استيقظت على صوت فتح الباب، دخل جندي وركلني بقدمه آمرًا إياي بالوقوف، فوقفت، فوضع العصابة على عيني وأمرني بحمل الدلوين إلى دورة المياه لأفرغ دلو قضاء الحاجة وأملأ الدلو الآخر بالماء، كنت أسير والعصابة على عيني، فخشيت أن أتعثر فيصيبني نجاسة مما في الدلو الذي أحمله، فتباطأت خطواتي، ومن أمامي جندي يجذبني ويلكزني بقوة ليحثني على المسير، وبعد عناء أتممت عملي وعدت إلى زنزانتي.

مر يومان، شعرت فيهما أني أغرق في بحار من الحيرة ، وجعلت أفكر: ما مصيري في الأيام القادمة؟ هل سأُعذَّب مرة أخرى؟ ما حال "أحمد" والإخوة الآخرين الآن؟ ماذا فُعل بهم؟ هل عُذِّبوا؟ هل استطاع السَّجَّانون معرفة مكان الأسلحة؟ هل سيستطيعون توجيه اتهام لنا؟ وحاقت بي الوساوس والأفكار اليائسة، وعجزت أن أصرفها عن عقلي، وأوشكت أن أتيه في غياهب القنوط.

وفي اليوم الثالث أقْبَل ليل السجن يَتَلَفَّفْ عليه عويل البائسين ونباح الكلاب كعادته، وفي هذه الليلة فُتح باب زنزانتي واصطحبني الجنود إلى غرفة التحقيق ذات الهواء المكيف، ومرة ثانية شعرت أني أجلس مواجهًا ضباط التحقيق، والعصابة على عينيَّ تمنعني من رؤيتهم، فخفق قلبي بقوة عندما تذكرت الجلسة السابقة وما تبعها من فتنة.

جاءني صوت أحد الضباط قائلاً: لماذا أقمت بالقاهرة وأنت في الأصل من (بنها)؟

قلت: جئت للعمل بعد ضاقت عليَّ سُبل العيش.

قال: كم من الزمن مرَّ بك وأنت في القاهرة؟

قلت: عامان.

قال: ومتى أصحبت عضوًا في التنظيم المسلح؟

قلت: لم أكن عضوًا في أي تنظيم مسلح.

تنهد الضابط، ثم قال: اسمع يا خالد، نحن نعرف دورك في التنظيم، بل نعرف عنك أكثر مما تتخيله، ورفاقك اعترفوا بكل شيء، فلا تحاول أن تخدعنا بإنكار الانتساب إلى التنظيم أو بالإدلاء بمعلومات خاطئة، إذ سنميز أقوالك بسهولة.

صمت الضابط هنيهة، وبدا واضحًا لي أنه يحاول خداعي وإيهامي بأنه يعــرف عــني أمورًا جادت بها قريحة ذهنه ولا أصل لها، فأنا لم يكن لي انتماء إلى تنظــيم، وربمــا لم يعترف أحد من رفاقي كما يزعم، ولعل خداعه يفسر سبب وضعي في الحبس منفردًا، إذ يمنعني ذلك من الاتصال برفاقي ومعرفة ما أقروا به.

استطرد الضابط قائلاً: نحن لا نرحم في حالة التنظيمات المسلحة، ولا نقبل إلا الحقيقة كاملة بجميع تفاصيلها دون أدنى نقص، فرصاصة واحدة قــد تطــيح بحيــاة رئــيس الجمهورية، وهذا يعني أننا جهاز مباحث أمن دولة فاشل، لذلك عليك أن تعتقد جازمًا أننا لن نتردد في فعل أي شيء من أجل الوصول إلى الحقيقة، وإن وصــل الأمــر إلى تقطيعك إرْبًا إرْبًا، وإحضار أمك أو أختك وهتك عرضها أمامك.

قلت بخوف: أرجوك، لا تعذبوني، سأقول الحقيقة كاملة.

قال: تكلم.

كنت قد عزمت على تحريف أسس الوقائع والإقرار بظاهرها الذي قد يكون معلومًــا عند الضابط، فقلت: أخبَرَني رفيقي في السكن...

قاطعني الضابط: هل تقصد "أحمد عاطف"؟

قلت: نعم، أخبرني "أحمد" بوجود نفر من الإخوة يحاولون العثور على بعض الأســلحة للتدريب على القتال، وأخبرني أيضًا أنه صاحَبَهم كي يقنعهم بالعدول عــن التســلح لعدم جدواه، كما حثَّهم على اعتناق مذهب جماعة التكفير والهجرة التي ينتمي إليها.

قال: وما أسماء هؤلاء الإخوة؟

قلت: لست أدري.

قال بصوت يشوبه الضيق: وما خططهم؟

قلت: إن كنت لا أعرفهم فكيف سأستطيع التعرُّف إلى خططهم؟

قال: وما الذي تعرفه غير ما ذكرت؟

قلت: لاشيء.

صمت الضابط برهة تخيلت فيها أنه يرمقني بنظرات حادة، ثم قال: لست أدري لماذا أجد صعوبة في تصديقك، ولكن سنتبيَّن صدقك من كذبك، والويل لك إن كنت تكذب أو تخفي شيئًا.

وأمر الجنود بإعادتي إلى الزنزانة.

وفي عصر اليوم التالي، بدا أن الضابط قد تبيَّن كذبي، إذ اقتادني الجنود إلى إحدى غرف التعذيب، وكانوا يطلقون عليها (حجرة الإخوة)، لم يضعوا عصابة على عيني هذه المرة، اقتربنا من غرفة تنبعث منها صرخات العذاب، دخلناها، فرأيت ثمانية رجال مجردين من ثيابهم، ورُبطت أيديهم المكبلة في سلاسل حديدية تدلت من السقف، وقُيِّدت أرجلهم بحبال غليظة، فغدوا عاجزين عن الحركة، وكان يطوف عليهم جندي ليصعقهم بسلك يجري فيه تيار كهربي، كان الجندي يضع السلك على بطونهم لثوانٍ معدودة، فتنتفض أجسادهم بقوة، وتتعالى التأوهات والصرخات فتكاد تشق حوائط السجن، ومضى الجندي ينقل السلك من رجل إلى آخر ويلوح على وجهه النشوة، تخيلت أنه شيطان من نسل إبليس وظهر في صورة آدمية، استطعت التعرُّف إلى "أحمد" بين الرجال الثمانية، فتسارعت نبضات قلبي، وشعرت بصعوبة في التنفس كما لو كنت أختنق، فسقطت على ركبتيَّ، ولكن الجنود لم يمهلوني، إذ قاموا بتجريدي من ثيابي، وألحقوني بالثمانية، فأصبحت تاسع المُعَذَّبين في (حجرة الإخوة).

كان تيار الكهرباء يسري في جسدي، فتتقلص عضلاتي بقوة، وأشعر أني في قبضة وحش كاسر يرتشف روحي ولا أستطيع الفكاك منه، ثم يُبعد سلك الكهرباء عن جسدي، فأشعر بنوع من الخَدَر ولا تقوى قدماي على حملي، ولولا ربط يدَيَّ في سلسلة متدلية من السقف لتهاويت على الأرض.

لم أدرِ كم من الوقت مرَّ حين توقف الصعق بالكهرباء، إذ عُدمت تقدير الزمن وصرت كمن أذهب الخمر عقله، ثم بدأت أستعيد عقلي شيئًا فشيئًا، نظرت حولي، كان الجنود قد انصرفوا، التقت عيناي بعيني "أحمد"، كان يبدو كمن شاخ بعد عمر بائس فترك الدهر أثر الشقاء على وجهه، نطق اسمي بصوت هامس: "خالد".

همست: "أحمد"، كأني أقول له إني أسمعك.

قال ولم يفارق الهمس صوته: لا تكرهني.

قلت بمشقة وقد ثقل الكلام على لساني: ما كرهتك قط.

قال وحروف الكلمات تخرج من فيه متقطعة: الحمد لله، سنخرج منها إن شاء الله.

ثم أردف متسائلاً: هل أقررت بشيء؟

قلت: زعمت أنك تدعو الإخوة إلى مذهب جماعة التكفير والهجرة.

قال وهو يحاول التبسم: إنك لُملبِّس.

دخل علينا بعض الجنود بغتة، وصاح أحدهم: إنهم يتكلمون.

وقال آخر: لقد كنا رحماء بهم، أحضروا (الكَمَّاشة).

وإن كانت (الكَمَّاشة) قد صُنعت لانتزاع الدُّسُر، فإن الجنود استخدموها لغرض آخر ما كان ليخطر بخَلَد صانعيها، إذ اجتثوا بها أجزاء من جلود أرجلنا، وكان الدم يسيل غزيرًا من موضع انتزاع الجلود، فيأتون بقضيب من حديد ملتهب فيضعونه على مكان النزع ليوقف نزيف الدم، عادت صرخات العذاب، ولكن لم يطل استماعي لها، إذ غشي عقلي ضباب الألم والصدمة ففقدت الوعي.

انتبهت على صوت ضحكات، فتحت عيني ببطء، كنت مستلقيًا على ظهري في زنزانة أكثر اتساعًا من زنزانتي الأولى، كان جسدي ثقيلاً، وأشعر بآلام مبرحة تفترس كتفي وقدمي، تخيلت دبيب الموت يقترب مني، فنطقت الشهادتين وأغمضت عيني، ولم تمض سوى لحظات حتى عادت الضحكات تصك أذني، وجهت ناظريَّ إلى مصدر الصوت فرأيت سجينًا معي يحملق في الفراغ ويضحك بين الفينة والأخرى، كانت ملابسه ممزقة وملوثة بالدماء ويشهد جسده من تحتها بما ذاقه من مُر العذاب، وبجواري كان ينام سجين آخر.

غالبت هوان ضعفي واعتدلت جالسًا، شربت من دلو به ماء قد تغير لونه، وأكلت لقيمات تناثرت على الأرض، نظرت بأِسى إلى قطرات دماء تتساقط من رجلي، ثم حولت بصري صوب الرفيق الضاحك، كان واقفًا ويخاطب نفسه بصوت مخفوض ثم يعلو صوته ثم يضحك، اقتربت منه وسألته: ما الذي يُضحكك؟

نظر إليَّ بَغْتة، وتفحَّص وجهي، كأنه لم ينتبه إلى وجودي من قبل، ثم قال: من أنت؟

قلت: أنا سجين مثلك.

قال صائحًا: أنت كاذب، أنت شيطان من صُنَّاع هذه الرؤيا الشيطانية.

ثم أمسك بمقدمة ثوبي، وجعل يهزني بعنف ويقول: عندما أستيقظ سأحرقكم جميعا أيها الشياطين.

ثم دفعني وشرع يضرب الحائط برأسه ويصيح: استيقظ، استيقظ، لقد سئمت هذه الرؤيا.

راقبته بحذر، وكنت في شك من جنونه الذي أسفر عنه بما فعل، وحدثت نفسي: هل جُن أم يدَّعي الجنون؟

نقلت بصري إلى السجين النائم، مددت يدي لأضرب وجهه محاولاً إيقاظه، ولكن برودة وجهه، كشفت أن أمامي جسد فارقته الروح بلا عودة، وهكذا وجدت نفسي أسيرًا مع مجنون وميت، ولكني تقبلت الأمر بغير مبالاة، إذ كان شأني يُغنيني، ويجفِّف منابع المشاعر الإنسانية عندي.

وبعد ساعات فُتح باب الزنزانة، ودخل ضابط وبعض الجنود، بدا على الضابط الدهشة، وصاح بالجنود: أين الثلاثة الذين ماتوا؟ هل عادت إليهم الروح؟

تلعثم أحد الجنود في الرد وهو يقول: لقد سقطت أجسادهم بلا حراك كالأموات.

صاح الضابط بغضب: أنت جندي أحمق، ألا تميز بين الموت وفقدان الوعي؟

مال الضابط على الجسد الميت ليتفحصه، ثم قال: اسحبوا هذه الجثة.

فهرع جنديان لتنفيذ أمره، وهنا هاجمهم رفيقي المجنون محاولاً النيل منهم وهو يقول بغضب: سأحرقكم أيها الشياطين.

ولكنه لم يُمهل طويلا، إذ تكالب الجنود عليه، وقيدوه، وقال الضابط: خذوه إلى حجرة المشاغبين.

ثم أشار الضابط إليَّ وقال: أما هذا فخذوه إلى زنزانة ٢٧.

ساقني الجنود إلى زنزانة أخرى، وكان يرافقني فيها رجل يناهز الأربعين من العمر، كانت حوائط الزنزانة قد امتلأت بالكتابة مثل الزنازين الأخرى، تأملت كتابات

الحوائط وأثار انتباهي دعوة إلى إنكار كل الاعترافات عند التحقيق في (النيابة)، وقد كنت قد قرأت دعوة مثلها في زنزانتي الأولى، وبدا لي حدوث اتفاق على هذا الأمر.

تعرَّفت إلى رفيقي الجديد، فأخبرني أنه إمام مسجد ويُدعى "عبد الحميد"، وأنه يمكث في هذا السجن منذ شهرين، وقد سبق اعتقاله عدة مرات بسبب نقده للنظام الحاكم في خُطبه، تأملته مليًا فلم أجد عليه أثر تعذيب، فوقع في نفسي أنه قد يكون جاسوسًا يهدف استدراجي لمعرفة ما أخفيه، فعقدت العزم على التحفظ في الحديث معه، وعدم البوح له بشيء.

بدا لي أني لم أصب في ظنوني، إذ كان "عبد الحميد" ذا علم وفقه، وكنت أحسب العلم لا يجتمع مع الرذائل، وفي يوم سألته: ما هدف تلك الدعوة إلى إنكار كل الاعترافات عند التحقيق في النيابة والتي كُتبت على الحوائط؟

فقال: النيابة هي الجهة المكلفة بالتحقيق وفق القانون، ومباحث أمن الدولة ليس لها أي حق في التحقيق مع المتهمين ويُحصر دورها في القبض على المتهمين مع تقديم الاتهام وأدلته، ولذا فجميع الاعترافات هنا لا قيمة لها.

قلت بدهشة: ولماذا يعذبوننا من أجل نزع اعترافات لا قيمة لها؟

قال: الاعتراف في أكثر الأحوال يقود المباحث إلى شهود وأدلة تَثْبُت بها التهمة ولا ينفع معها الإنكار في النيابة.

قلت: وإذا لم يتوصلوا إلى أدلة أو شهود، ثم أنكرنا اعترافاتنا في النيابة، ماذا سيحدث؟

قال: إذا سار الأمر على هذا النحو ستُسقط النيابة التهم خاصة إذا تم إثبات التعذيب، وإذا لم تُسقطها سيحكم القضاء بالبراءة دون شك.

***

كنت قد قضيت ما يقرب من الأسبوعين في زنزانة ٢٧ عندما ساقني الجنود إلى غرفة التحقيق للمرة الثالثة، وجلست مواجهًا مجموعة الضباط كالعادة، ورأيت وجوههم لأول مرة، وطلب أحدهم لي كوبًا من الشاي، ثم خاطبني بصوت هادئ فقال: نعتذر عما فعله الجنود بك.

قلت: لقد أوشكت على الموت.

قال: نرجو أن تضع في الاعتبار دقة عملنا.

قلت: وأرجو أن تضعوا في الاعتبار أننا بشر.

قال: الجزاء من جنس العمل، والتنظيمات المسلحة لا تتورع عن القتل.

ثم استطرد قائلا: لقد أقر زملاؤك بأنك لا يربطك صلة بتنظيمهم، ونحن الآن نريد مساعدتك.

قلت: كيف؟

قال: سيتم عرضك وزملائك على النيابة بعد يومين، ولابد أن يقود تحقيق النيابة إلى أدلة تحسم القضية، حتى ننتهي من الأمر، لذلك نريدك أن تكون شاهدًا وتقر في النيابة أن صاحبك "أحمد عاطف" أخبرك بمكان يتخذه التنظيم مخبأً للقنابل.

قلت: ولكنه لم يخبرني بشيء من ذلك!

قال: نحن نعلم، سنخبرك بهذا المكان، وما عليك إلا الإقرار بذلك أمام النيابة.

قلت: أتسألني شهادة الزور؟

قال: لا تنظر إلى الأمر هذه النظرة السوداء، أنت بذلك تخدم وطنك وتحميه ممن يمكرون بأهله.

قلت: الغاية لا تبرر الوسيلة.

قال: يبدو أنك تكره النجاة.

قلت: لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، وإن كتب الله لي النجاة سأنجو.

قال وقد بدأ الغضب يلوح في صوته: لا تذكر اسم الله هنا، ولئن لم تفعل ما نأمرك به لَنجعلنَّك متهمًا ولن يُنجيك أحد، فلا تكن غبيًا فتلقي بنفسك إلى التهلكة، أمامك يوم واحد للنظر في المسألة وأخذ القرار.

وقبل أن أُعقِّب، أمر الجنود بإعادتي إلى الزنزانة.

رويت "لعبد الحميد" حواري مع الضابط، فقال: هذا الطلب يدل على أن المباحث لم تعثر على الأسلحة، فلو عثرت عليها لما سعت إلى تلفيق أدلة.

وفي اليوم التالي دعاني الضابط، فلما وجد مني إصرارًا على رأيي، توعَّدني بوضع اسمي في قرار الاتهام.

وبعد يوم آخر اقتادني الجنود مع "أحمد"و خمسة عشر أخًا من رفاقنا إلى سيارة مصفحة سارت بنا صوب النيابة، وأخبروني في السيارة أهم أقروا بتدريباتهم المسلحة ولكنهم لا يعلمون مكان الأسلحة، وفوق ذلك لا يعلمون من قام بإخفائها، وبعد حديث قصـير اتفقنا على إنكار كل ما اعترفنا به عند التحقيق المرتقب معنا في النيابة، مع إثبات مـا تعرضنا له من تعذيب ترك آثاره على أجسادنا.

وقد فعلنا ما اتفقنا عليه، فأنكرنا في النيابة وجود تنظيم أو سلاح أصلاً، وقلنـا أننـا أُجبرنا على اعترافات كاذبة تحت وطأة التعذيب.

ولما عدنا إلى السجن في آخر النهار، شعرنا بحركة مضطربة تجري فيـه، واسـتقبلنا الجنود بالصفعات والركلات والشتائم، وساقونا إلى إحدى حجرات التعـذيب فـور وصولنا، وقيدونا في قوائم خشبية، وانهالت علينا لسعات السياط.

وبعد ساعة دخل علينا ضابط وقال بحنق: مادمتم قد أنكرتم أقوالكم واخترتم طريـق العبث، فأبشروا بما ستلقونه.

ولما جن الليل أطلق الجنود علينا كلاباً كانت إلى الذئاب أقـرب، فراحـت تنـهش أجسادنا بلا هوادة، وتحولت حجرة التعذيب إلى مأتم يضج بالبكاء والعويل والهـذيان والسباب واللمز وفرقعة السياط ونباح الكلاب، ومرت ساعات الليل كالدهر إلى أن تعب الجنود وخشعت الكلاب، وخرجت أنفاسنا المكتوية بلـهيب الألم تَجْـأَر إلى الله بالشكوى، وتسأله أن يُفرغ علينا صبرًا.

أصبح التعذيب الليلي مفروضًا علينا في الأيام التالية، وبعد انتهاء ذلك الفرض الليلي كنت أُعاد مع اثنين من رفاقي إلى زنزانة،لم يحاول أحد اسـتجوابنا للحصـول علـى معلومات جديدة، فلم يَبْدُ للتعذيب هدف إلا أن يكون عقابًا لإنكارنـا اعترافاتنـا في تحقيق النيابة.

وبعد عشرة أيام توقف التعذيب، ولكن أثره ظل حاضرًا، إذ فقـدت القـدرة علـى التفكُّر، وبات عقلي مشوشًا تائهًا، آلام الجسد منعتني النوم إلا إغفاءات قليلة، كنت على حافة الجنون لولا أن منَّ الله علينا وجعل الأيام تتكفل بإبرائنا من آلامنا وجراحنا.

مرت أيام كنا نتربص فيها بِشَرٍ مبهم، وحاقت بنا هواجس الهــلاك فطمســت كــل بصيص أمل في الخلاص، إلى أن جاء اليوم الذي دعاني فيه الضباط إلى غرفة التحقيــق المكيفة مع "أحمد"، فجلسنا مكبلي الأيدي في مواجهة ضباط التحقيق.

ساد الصمت هنيهة، ونظرات الضباط المصوبة إلينا تنطق بما في نفوسهم من بُغــض، ثم تكلم أحدهم فقال: يجب أن تعلموا أننا هنا نضــع قانوننــا الخــاص، ونســتطيع أن نحتجزكم مع أعضاء تنظيمكم المسلح لسنوات طويلة دون محاكمة، فنــذيقكم شــتى أصناف العذاب.

سكت قليلاً، ثم أضاف: لذلك كان خيرًا لكم أن تُحاكموا بتهمتي حيازة أسلحة دون ترخيص وتكوين تنظيم مسلح يهدف إلى الإطاحة بنظام الحكم، فتقضون فترة السجن العادلة التي سيحكم بها القضاء دون أن يصيبكم ضُر من التعذيب، فهل تتفقون معــي في ذلك؟

أومأنا برءوسنا موافقين، فاستطرد الضابط: نحن نعلم أنك يا "خالد" لم يربطك بالتنظيم صلة مُعتبرة، وأنك يا "أحمد" سبق اعتقالك لانتمائك إلى جماعة التكفير والهجرة كمــا جاء في ملفك لدينا، لذلك سنعتبر أن توجهك الجديد إلى التنظيم المسلح كــان مجــرد مصاحبة عابرة لبعض أعضائه ، وسنضمن لكما حكمًا بالبراءة عند المحاكمة، ولكــن لابد أن يكون ذلك بمقابل.

صمت الضابط، ثم تكلم "أحمد" للمرة الأولى فقال: وما المقابل؟

فرد الضابط: أن تكونوا شهودًا في القضية، فتشهدوا في النيابة وأمام القضــاء علــى الحقيقة كاملة، وتنقذوا أصحابكم من العذاب.

قلت متسائلاً: وعلام تريدنا أن نشهد؟

فرد الضابط: ستقولون إن التنظيم سعى إلى تجنيدكم ضمن صفوفه انطلاقًا من صلتكم الوثيقة ببعض أعضائه، ولكنكم أبيتم، ثم ستدلون بأسماء أعضاء التنظيم وخططهم ومخبأ أسلحتهم...

قاطعه "أحمد" قائلاً: نحن لا نعلم للتنظيم خططًا ولا مخبأ أسلحة.

فقال ضابط آخر: سنُعلمكم بالخطط والمخبأ، إن كنتم لا تعلمون حقًا.

لذنا بالصمت ولم نُعقِّب، فقال الضابط الذي بدأ الحوار: ماذا رأيتم؟

قلت: هل لنا أن نعرف الخطط والمخبأ الآن؟

فرد الضابط: الخطط بإيجاز تنحصر في التخطيط لاغتيال بعض أصحاب المراكز القيادية في الدولة، والمخبأ هو منزل قديم مهجور كان يقطن به أحد أعضاء التنظيم منذ سنوات.

فتساءل "أحمد": ومَنْ ذلك العضو؟

فقال الضابط: هو "محمد صلاح".

فسألت الضابط: وهل عثرتم على الأسلحة؟

فردَّ بحدة: ليس هذا من شأنك.

لُذنا بالصمت مرة أخرى، ونظر إليَّ "أحمد" نظرة ذات مغزى، فقطع ضابط حبل الصمت قائلاً: سنترككم يومًا أو يومين للنظر في الأمر، وتذكروا أنكم بشهادتكم ستنقذون أنفسكم وأصحابكم من عذاب لن ينتهي.

ثم أمر الجنود بنقلنا معًا إلى إحدى الزنازين.

جلستُ و"أحمد" متجاورين في زنزانتنا الجديدة، كنا قد قضينا نحو شهرين في هذا السجن دون أن نجتمع معًا في زنزانة واحدة، فقلت له: لقد افتقدنا هذه الجلسة.

قال: تمنيت لو كان اجتماعنا في غير هذه الفتنة.

قلت: (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون).

قال: عسى أن نكون من الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

قلت: كيف ترى عَرْض الضباط؟

قال: هم كاذبون ومخادعون، لقد عجزوا أن يجدوا الأسلحة، ويريدون أن يلفقوا قصة لتقنع النيابة والقضاء، فلو عثروا على الأسلحة لثَبَتت التهمة وانتهى الأمر، وما كانوا ليعرضوا علينا عرضهم هذا، ولكنهم عاجزون عن إثبات الاتهام بعد إنكارنا له في تحقيق النيابة.

قلت: وماذا عن قولهم أنكم خططتم لاغتيال بعض أصحاب المراكز القيادية في الدولة.

قال: هذيان خرج من عقول تافهة، فنحن لم نخطط لأي اغتيال أو عمل قتالي، بل قيدنا ذلك باكتمال العدد والعدة، وهو أمر يستلزم زمنًا طويلاً، فأرجأنا القتال إلى أجل غير مسمى.

قلت: كأنك ترفض عرضهم.

قال بصوت ينم على الاستنكار: وهل كنت في رَيْبٍ من رفضي؟

قلت: لقد أوشكت أن أموت وأصاب بالجنون ولن أستطيع تحمل التعذيب.

قال ولم يفارق الاستنكار صوته: وماذا ترى؟

قلت: ألا ترى أننا باعترافنا سننقذ إخواننا من التعذيب؟

قال بحسم: هم الأولى بإنقاذ أنفسهم لو أرادوا، فلا تكن عليهم وكيلاً.

صمت برهة أتفكر، ولما وجدت قوة منطقه قلت: اعذرني فالفتنة تكاد تُذهب عقلي.

فربت على كتفي، وقال: اصبر واحتسب.

قلت: لعلك ندمت الآن على الالتحاق بالتدريب المسلح.

قال بصوت عميق: ما ندمت قط.

قلت: عجبًا لأمرك.

قال: لا تعجب، هل تذكر شجرة الثُّبُور التي نَمَت في قلبي؟

قلت: نعم.

قال: كأني غدوت أسيرًا لها، فتدفعني إلى الانتقام كلما وجدت له سندًا شرعيًا وإن كان ضعيفًا.

قلت: أتُقر بضعف السند الشرعي لما ذهبت إليه؟

قال: نعم، وقد نطق لسان حالي بذلك، إذ لم أعاتبك يوم رفضك منهج العمل المسلح، ولولا تلك الشجرة لكنت رافضًا له مثلك.

قلت: حسبت التعذيب الأخير قد قتل شجرتك.

فتبسم بمرارة وقال: بل جعلها أشجارًا.

قلت: أسأل الله أن يميت هذه الأشجار التي يَهْلك صاحبها قبل أن يُمضي ثبوره.

نظر "أحمد" إليَّ مليًا، ثم قبع وسط سياج غامض من الصمت.

اقتادنا الجنود إلى غرفة التحقيق بعد يومين، فجلسنا بين أيدي ضباط التحقيق، فقال أحدهم: هل فكرتم؟

رد "أحمد": نعم.

فقال الضابط: عظيم، هل ستشهدون على ما أخبرناكم به؟

رد "أحمد" بحدة: كلا.

ساد الصمت هنيهة، وتبادل الضباط النظرات، كأنهم صُدموا بِردٍ لم يحتسبوه، ثم تكلم ضابط آخر فقال: اسمعوا، نحن نستطيع إجباركم على طاعتنا إذا أمرناكم، وأنتم لم تعلموا إلا قدرًا يسيرا من طرائق القهر عندنا، فلا تضطرونا إلى إخضاعكم بما تكرهون.

سكت الضابط، وساد الصمت مرة أخرى، خفق قلبي بقوة، فها هي طلائع نذر العذاب تحيق بنا، وأنا لا أملك لها دفعًا، كأني سفينة بلا قبطان تعبث بها الرياح وتكاد تبتلعها الأمواج العاتية.

صاح الضابط الأول كأنه ضاق بصمتنا ذرعًا: هل ستتبعون ما نأمركم به أم لا؟

رد "أحمد" بهدوء: لن نتبعكم، ونعوذ بالله منكم، افعلوا...

قاطعه الضابط قائلاً بغضب هادر: لا تذكر اسم الله في هذا المكان أبدًا.

ثم قام وصفع "أحمد" بقوة، وأمر الجنود أن يأخذونا إلى (حجرة الضيوف).

انتقلنا إلى (حجرة الضيوف)، وهناك قام الجنود بنزع بعض أظافر أيدينا وأقدامنا، كما قاموا بنزع شعر لِحانا، عاودتنا صرخات الألم، وشعرت بأن الأرض تميد بي، وبدأت تنمو في قلبي شجرة الثبور بعد أن كنت بالأمس أدعو الله أن يُميتها في قلب "أحمد".

وفي اليوم التالي أعادنا الجنود مرة أخرى إلى غرفة التحقيق، جلسنا في مواجهة ضباط يجلسون خلف مكتب ضخم، كان الجنود يقفون حولنا، وكانت أيدينا مكبلة خلف ظهورنا، والدماء الرطبة تغشى وجوهنا وما بقي من لِحانا، ملابسنا الممزقة أذهب الترابُ والدماء لونها، وأماكن نزع أظافرنا صارت كجمرات ملتهبة لا تنطفئ.

نظر إلينا الضباط نظرة تشفي، ولاحت على وجوههم ابتسامة شماتة، ثم قال أحـــدهم موجهًا حديثه إلى "أحمد": أحضرنا أمك كي تقنعك بالعدول عن رأيك، وإذا لم تسمع لنصحها، سنأمر أحد الجنود باغتصابها أمامك.

أذهلني قول الضابط، نظرت إلى "أحمد" فبدا وجهه جامدًا، وكان يصوب نظرات حادة نحو الضابط الذي يحدثه.

فُتح باب جانبي يفصل غرفة التحقيق عن غرفة أخري، ودخلت منه امرأة عجوز، نظر "أحمد" إليها، فتلاقت نظراتهما، كانت عينا "أحمد" تنطقان بالشفقة، اقتربت الأم ببطء من "أحمد" دون أن تنقل بصرها عنه، حتى إذا صارت بين يديه مدت يـــدها لـــتلمس وجهه برفق، وسالت خيوط الدموع على وجنتيها، ربما لا يستطيع وصف مشاعر الأم في هذا الموقف إلا أم مثلها، فأكثر الناس يجهلون حقيقة تلك العاطفة التي تـــربط الأم بأبنائها، فهي ليست عاطفة وليدة موقف عابر أو مصلحة عاجلة وليست مبنية علـــى وهم كاذب أو إعجاب مُتَصَنَّع، بل هي عاطفة تنشأ منذ أن يُخلق الابن في رَحِمهـــا، وتنمو مع نموه بين يديها، وربما تزهد في الدنيا من أجل إحسان تربيته وتأديبه، فكأنهـــا ترى نفسها فيه، وتجعل منتهى آمالها في صلاحه، وغاية رجائها أن يسلم من كل ضُـــر وسوء، فبم ستشعر هذه الأم عندما ترى ابنها يوشك أن يهلك وهي أمامه عـــاجزة لا تملك دفع الضُّر عنه؟

قطع الضابط الصمت مخاطبًا أم "أحمد" فقال: أقنعي ابنك بالتعاون معنا كي تســـتطيعي رؤيته بعد اليوم.

فلم ترد الأم، كأنها لم تسمع الضابط، وتحركت يداها ببطء يفرضه عمرهـــا الطـــاعن لتمسح الدماء عن وجه "أحمد" بطرف خمارها، وكانت الشفقة في عيني "أحمـــد" قـــد تحولت إلى حنين وسكينة.

كرر الضابط خطابه إلى الأم، وتكرر تجاهلها له، فاغتاظ ونزع خمارها بقوة، فشهقت، وقام "أحمد"، وصعد كالبرق الخاطف على المقعد الذي كان يجلس عليه، ومنه قفـــز إلى المكتب، وكانت يداه مكبلتين، فركل رأس الضابط بقدمه كما تُركل كـــرة القـــدم، فترنح الضابط، وتحفز الجنود للانقضاض، وانطلقت عدة رصاصات من مسدس ضابط

آخر لتستقر في أماكن متفرقة من جسد "أحمد"، فهوى على الأرض، وانفجرت منه الدماء.

عمَّ الذهول، وارتفع عويل الأم، وانحنت نحو جسد ابنها، تحركت يداها باضطراب على الجسد محاولةً إيقاف تدفق الدم دون جدوى.

نظر "أحمد" نظرةً ذابلة إلى أمه وهمس بِوَهنٍ: لا تحزني إني ذاهب إلى لقاء ربي.

ثم نظر إليَّ كأنه يدعوني أن أقترب منه، فملت نحوه، وكنت أشعر أني أرى أضغاث أحلام، فهمس: انقطع عملي وكنت أود لو كثر، فادع لي كأني أبوك.

قلت: قل لا إله إلا الله.

فنطق الشهادة، وأرخى جفونه، وجفَّت للثبور أشجار، وسكن الجسد المكابِد، وغادر الدنيا عقل طالما تحرى الحق متحررًا من التقليد فأصاب وأخطأ، وشعرت أني أرى ابتسامة على شفتيه، ولم أُمهل أكثر من ذلك، إذ سحبتني أيدي الجنود إلى الزنزانة.

قبعت في الزنزانة دون أن أحرك ساكنًا، كنت فيما يشبه الغفوة من الذهول، توقف عقلي عن التفكير، ربما مكثت ساعات على هذه الحال، ولم أنتبه إلا على صوت فتح باب الزنزانة في الموعد المخصص لإحضار الطعام، دخل جندي فوضع على الأرض طعامًا من العدس والخبز والبرتقال وانصرف، تأملت الطعام برهة، ثم التقطت برتقالة، ونزعت قشرها لأكتب به على الحائط (أخي.. هنا تموت الأخلاق، وتذهب العقول، وتَعمى البصائر، ويتبدد الأمل، ويتحطم الصبر بين رحى الفتن، ويتغير مجرى الدماء، ويأمر الشيطان فيُطاع، فجاهد كي تبقى إنسانًا).

(٤)

كان يوم موت "أحمد" هو آخر عهدي بالتعذيب، ولكـــن لم تكـــن آلام الأحـــزان في صدري أهون من آلام البدن، وإن كانت آلام البدن تزول مع الأيام فإن آلام الأحزان قد تبقى ملقية بظلالها على ملامحنا وأفعالنا وتفكيرنا إلى أن نرحل عن هذه الدنيا.

وقد تم التحقيق معي مرة أخرى في النيابة بعد ثلاثة أيام من مقتل "أحمد"، فلم أقل شيئًا ذا بال، ثم نُقلت بعد ذلك إلى سجن آخر، مكثت فيه أربعة أشهر، ومضت أيامه تجـــر أحزاني جرًا، فلبثت أكابد لوعة ذكريات سجن القلعة، حتى إذا جاء يوم العتق أعطوني بطاقة هويتي، ومبلغًا صغيرًا من المال تبرع به الضابط المسؤول عن إجراءات إطـــلاق السراح، وقال لي بمودة: أنت مازلت في حداثتك، والحياة أمامك فأقبـــل عليهـــا، ولا تلتفت وراءك إلا لأخذ العبرة.

فأومأت برأسي محاولاً اغتصاب ابتسامة ضلَّت الطريق إلى شفتيَّ منذ شـــهور طويلـــة، وخرجت إلى الحرية.

كان السجن على مشارف الصحراء فوقفت على جانب الطريق لأســـتوقف ســـيارة تحملني إلى القاهرة، ألقيت بصري صوب أفق تلتقي فيه السماء مع رمال الصـــحراء، تمنيت أن أعدو محاولاً إدراك ذلك الأفق لأتيقن من حريتي، ولكن ثقل أيـــام الســـجن على كاهلي منعني من أن أبرح مكاني، وبعد طول انتظار توقفت سيارة من ســـيارات نقل البضائع فركبت في مؤخرتها بين أقفاص طماطم، وكان يجلس بجـــواري رجـــلان، أحدهما شاب قوي بدا لي أنه الحمَّال المسؤول عن تحميل البضائع وإنزالها من السيارة، والآخر شيخ طاعن في السن يقبض بيديه على (مقطف) تخرج منه رأس دجاجة، كانت الدجاجة تمعن النظر إليَّ كأنها تسألني عن حالي، أو لعلي أوهمت نفسي بذلك افتقـــارًا إلى من يسأل عني، مددت يدي لأداعب رأس الدجاجة، فأبعدها الشيخ عني بســـرعة ورمقني بنظرة شك أوحت إليَّ بأن ماضيه كان حافلاً بأسباب الريبة والغـــدر، فدفعـــه ذلك إلى التوجس مني الآن، وتساءلت في نفسي: ماذا سيكون حالي إن مدَّ الله عمري وصارت أيامي اليوم ماضيًا ذا أثرٍ على رؤيتي للناس وشتى مناحي الحياة؟

توقفت السيارة عند مستودع لتجارة الخضراوات والفاكهة، فترلت وأعطيت السائق أجرًا ضئيلاً، فقَبِلَه على مضض، تأملت وجوه السائرين من حولي، وتفكَّرت في حقائق باطنهم التي قد يخفونها خلف تلك الأقنعة التي يظهرون بها، ثم بدا لي أن هذا التفكير من العبث ولا تُرجى منه فائدة، ومع ذلك كان يفرض نفسه على عقلي وأنا مستسلم له تمامًا.

توجهت إلى مسكني راجيًا من الله أن يكون عمي قد نقد صاحبَ السكن إيجار الغرفة خلال الشهور الماضية أو احتفظ بأمتعتي، فلما وصلت إلى مسكني رأيت رجلاً يطل من نافذة غرفتي، فذهبت إلى صاحب السكن لأسأله عما صار إليه أمر الشقة، فأخبرني أنه قام بتأجير الشقة كاملة إلى إحدى الأُسَر، وصاحبني إلى بدروم المترل حيث يحتفظ بأمتعتي وأمتعة "أحمد" في أجولة، وقال: خذ أمتعتك وأمتعة صاحبك معها، ولن أطالبك بإيجار الشهر الأخير مراعاةً لحالك.

فتحت الأجولة لألقي نظرة علي ما بداخلها وامتدت يدي تعبث بمحتوياتها، فوجدت ملابس وأحذية ونقود قليلة كنت قد ادخرتها، وكتاب كنت قد استعرته من صاحب دكان الكتب القديمة عنوانه "أصول الأحكام" وبعض الأوراق والكتب المملوكة "لأحمد" ومصحف كبير الحجم اعتاد أن يقرأ منه القرآن.

حملت الأجولة وتوجهت إلى مترل أسرة "أحمد"، وعندما طرقت الباب فتحت أُمُّه العجوز فألقيت عليها السلام، فردته، فقلت لها: معي بعض الأمتعة التي كان يمتلكها "أحمد".

قالت: ومن أنت؟

قلت: كنت رفيقه في السكن، وكنت معه يوم ...

كاد لساني أن ينفلت ويذكرها بيوم مقتل ابنها، ولكني تداركت الأمر خشية إعادة جروح لعلها اندملت.

قالت: ولماذا لم تحضر الأيام المنصرمة؟

قلت: كان أمامي عوائق.

دفعت إليها بجوالين بداخلهما أمتعة ابنها، فالتقطَت إحدى ملابس "أحمد" واحتضنتها، وسالت دموعها في صمت.

انتظرت قليلا، ثم سألتها أَخْذَ مصحف "أحمد" فأذنت لي، فأخذته وانصرفت.

توجهت إلى متجر عمي، وعند وصولي صافحني عمي بفتور أثار وساوسي، ثم قـــال: متى خرجت من محبسك؟

قلت: اليوم.

قال: الحمد لله على سلامتك.

قلت: لقد قام صاحب المسكن بتأخيره لأسرة، وأرغب في العثور على مسكن جديد.

قال: هل ستعمل في القاهرة؟

قلت: ألست أعمل في متجرك؟

قال: كان ذلك في الماضي، أما الآن فالعمل في المتجر لا يحتاج عمالاً جدد.

صدمتني مقولته.. فقلت: ألست الأولى بالعمل هنا من غيري؟

صمت برهة قبل أن يقول: انظر يا "خالد" سأكون صريحًا معك، بعد القبض عليك تم استدعائي إلى مباحث أمن الدولة عدة مرات، وأنا رجل كبير السن، ولا أتحمل مثـــل ذلك، ولي أبناء صغار أريد تربيتهم ، فاعذرني وحاول أن تضع نفسك مكاني لتفهم ما أعنيه.

لذت بالصمت قليلاً، ثم قلت بصوت يشوبه الحزن: لا بأس، وأعتذر عما سببته لـــك من مضايقات مع المباحث.

قال: لا عليك ، وأنصحك أن تعود إلى (بنها)، ويمكنك أن تبيع الشقة التي تركها لك أبواك لتبدأ عملاً أو مشروعًا جديدًا.

وامتدت يد عمي إلى جيب سرواله فأخرج بعض المال وأعطاه لي قائلاً: هـــذا راتـــب شهرك الأخير وفوقه مثله، ولو كان لك حاجة فلا تتردد في سؤالي.

قلت: جزاك الله خيرًا.

قال: وأنصحك أن تبتعد عن تلك الجماعات المتطرفة، فلن تجني من مصاحبتها ســـوى الندم.

تبسمت بمرارة، وتذكرت مقولة قديمة كنت قد كتبتها يومًا، فقلت وخاطري يجول به بعض الذكريات: لولا غشاوة أبصارنا ما عرفنا الندم، وندم اليوم نتبيَّن بعده السبيل، فهو خير من ندم تنقطع بعده السبل، وإذا نبتت بذور فلن تموت مادام الماء يجري من تحتها، وإذا جفَّت الأشجار فلن يعيد الماء إليها الحياة.

قال: يبدو أنك تريد العمل في الزراعة.

تبسَّمت من رده على الرغم مني، وقلت: النفس تريد أمورًا ولكنها لا تدري ماذا تكسب غدًا.

قال: وفقك الله.

ثم ولىَّ اهتمامه إلى رجل يقوم بترتيب بضاعة المتجر، فانصرفت متجهًا إلى صاحب دكان الكتب القديمة لأعيد إليه كتابه، فلما رآني صاح بي: "خالد"! أين كنت يا رجل؟

قلت: السلام عليكم.

قال: وعليكم السلام، أين اختفيت الشهور الماضية؟

قلت: كنت في ضيافة قهرية عند بعض الناس.

ثم أخرجت الكتاب الذي استعرته من الجوال، وقدمته إليه قائلاً: لا تؤاخذني لتأخري في رد كتابك.

تأمل الكتاب، ثم قال متبسمًا: عليك أن تدفع أجر الاستعارة مضاعفًا لطول المدة.

أخرجت له الأجر الذي طلبه فأبى أن يأخذه، وقال: إن كنت قد انتفعت بالكتاب، فاجعل أجري على الله هذه المرة.

قلت: أشكرك.

كنت أشعر بالتعب الشديد، فاستأذنته وجلست في المقهى المجاور له وطلبت قدحًا من الشاي، وحاولت التفكير في الخيارات المتاحة أمامي، هل أعود إلى مدينة بنها كما نصحني عمي أم أبقى في القاهرة؟ ولم يطل تفكيري، إذ عقدت العزم على العودة، فقمت متوجهًا إلى محطة القطار، وهناك ألقيت بنفسي في أول قطار يمر خط سيره بمدينة بنها.

جلست في القطار ومعي جوالان، وذكريات ثلاثة أعوام، ورؤية جديدة قاتمة للحياة، وجسد مُنهك القوى لا يزال يحتفظ بآثار عدوان شياطين الإنس، وصدر نمت فيه أشجار ثبور ونقمة.

مكثت في القطار أكثر من ساعة ولكني لم أشعر بالوقت فمَرَّ كأنه لحظات عابرة، ولعل ذلك من أثر أيام السجن فوقتها زهيد، ويغدو معدوم القيمة كشيء مفقود.

وعندما وصلت مدينة بنها حدثت نفسي: هاهي مدينتي بين يديَّ كما تركتها، وكما كانت منذ مئات الأعوام، وربما تبقى مائة عام أخرى، ولن يتغير سوى هذه الوجوه التي تجوبها ليل نهار، وكم من أصحابها يخفون في صدورهم قلوب السجانين، وغدًا سيذوبون تحت الثرى، ويأتي من بعدهم خلف لا أحسبهم سيكونون أحسن حالاً، فالحَمَل لا يخرج من رَحِم الذئاب، والحنظل لا يُؤتي العنب.

وآلمني حديث النفس، وأحزنني تلك الوجهة التي تميد نحوها أفكاري، ولكني ألقيت آلامي وأحزاني في لُجَّة الشُّغل، وحملتني سيارة إلى منزلي القديم، فلما دخلت المنزل استنشقت عبق الماضي، ومرت أمام ناظريَّ أطياف أبي وأمي، ولاحت أيام طفولتي من خلف أستار السنين، فدب في قلبي حنين جارف إلى أن أعود طفلاً يرى الناس من حوله بعيون البراءة، ويحيا مُوجَّهًا بفطرته البيضاء الصافية التي لم يكدرها خَبَث الظالمين.

الفصل الثاني

(١)

استقر بي الحال بعد عام من عودتي إلى بنها، وأصبحت بائعًا متجولاً أمتلك عربة خشبية أجوب بها الشوارع عارضًا عليها بضاعتي من الكُتيبات الدينية، وقد فُتح عليَّ باب رزق واسع من تلك التجارة، وكنت أذهب إلى القاهرة مرة في كل شهر لشراء بضاعتي من دور النشر، ولم أنسَ المرور على دكان الكتب القديمة لأشترى كتب العلم التي كنت أستعيرها بالأمس، فأصبح لدي مكتبة زاخرة بالكتب، وخبتت ذكرياتي الأليمة في مجرى حياتي الجديدة.

بدأت نفسي تهفو إلى الزواج، وكان من عاداتنا أن يلجأ المرء إلى أقاربه ليعينوه في اختيار زوجة، ولم يكن لي من الأقارب سوى عمي المقيم في القاهرة وخال مهاجر إلى السعودية، وكنت أريد زوجة من مدينتي، فلم أجد من أفاتحه في الأمر غير جاري وصديق طفولتي "عمر"، وكان قد تَخَرَّج في كلية الزراعة منذ عامين، وأصبح متعطلاً بلا عمل، وكنت أقول له ممازحًا: ها أنت أهدرت أربع سنوات في كلية الزراعة وتعلمت علمًا زراعيًا لا تنتفع به، ألا ترى أنك عقدت صفقة خاسرة وكان الأولى إنفاق وقتك في طلب العلوم الشرعية؟

فيرد قائلاً: التعليم الزراعي لم يكن قط صفقة خاسرة.

فكان ينفي الخسران مع ظهوره لكل ذي لُب، وكنت أرى تفسير نظرته إلى التعليم الجامعي المتخصص دون الحاجة إلى العمل به في مقوله تعلمتها من "أحمد عاطف"، إذ قال لي يومًا: (عندما ينشأ الإنسان وسط طوائف مجتمعة من البشر فإنه يميل بطبعه إلى مسايرة التوجهات الاجتماعية أو الدينية أو الفكرية الشائعة في مجتمعه، فيدين بها دون تَفَكُّر إيمانًا منه بأن هذه التوجهات إنما هي ثمار العقول النيرة، ولولا صوابها ما حققت ذلك الشيوع، فحري به أن يتَّبع ما أجمع أولو العقول على صوابه)

كان يربطني "بعمر" صداقة وثيقة، وكنا نتبادل الزيارات كل أسبوع، وفي إحدى زياراته قلت له: ألا تعرف من يدلني على امرأة فتكون لي زوجًا؟

فقال: أعرف الكثير، هناك امرأة عجوز تقطن بهذا الشارع وتقوم بدور الوسيط بين الراغبين في الزواج مقابل أجر زهيد.

قلت: أتتخذ التوسط عملاً؟

قال: نعم.

قلت: أحسبها تجهل حال الذين يسعون إلى الزواج بسؤالها.

قال: وما الضرر في جهلها؟

قلت: أريد امرأة ذات دين، ولذا يلزم من يدلني عليها أن يكون عالمًا بحالها.

قال: ليس في سؤالها شيء من الخسران، ولنرَ ما عندها.

ذهبنا إلى تلك العجوز، وبدأ "عمر" الحديث فقال لها: صاحبي يبحث عن زوجة.

فقالت: سيجد عندي بغيته إن شاء الله، عندي فتيات كالبدر.

قلت: لا أريد بدورًا ولا أقمارًا، وإنما أريد فتاة ذات دين.

قالت: كلهن ذوات دين، وإيمان بالله.

قلت: هذا فأل طيب.

فعرضت العجوز عليَّ صورة فتاة متبرجة وقالت: ما رأيك؟

قلت بدهشة: أهذه الصورة لذات دين؟

قالت: نعم.

قلت: كيف تكون ذات دين وهي تجهر بالتبرج؟

قالت: ربك رب قلوب.

قلت وقد بدأت أشعر بالضيق: فساد الظاهر يثبت فساد الباطن، وصلاح الظاهر لا يثبت شيئًا إن لم يصاحبه قرائن تُرجِّح صلاح الباطن.

قالت: عندي كل الأصناف، ما رأيك بفتاه ذات حجاب وأبوها من العارفين بالله.

قلت: ومن العارفون بالله؟

قالت: هم مشايخ (الطرق) الصوفية.

قلت بغضب: تبًا للجهل، وسحقًا لأهل الطرائق الصوفية.

ثم نظرت على "عمر" وقلت: قم يا رجل، لقد أوشكت على التَّطير بالزواج.

فاعتذر "عمر" إلى العجوز بكلمات قليلة، وانصرفنا.

وبينما نحن نسير في طريق عودتنا قال "عمر": ماذا أصابك يا "خالد"، لم أعهدك سريع الغضب.

قلت: لست أدري، لعله الجهل، فلو كان الجهل رجلاً لقتلته، إذ أحسبه سبب كل البلايا التي أصابت أمتنا.

قال: لا بأس، أمي كثيرة الصديقات، أأسألها من أجلك؟

قلت: لقد كان الأولى أن نبدأ بها، ولا نذهب إلى تلك الشمطاء.

قال: حسنًا، انتظر ردي غدًا.

ثم ودَّعني وافترقنا.

وجاءني "عمر" في اليوم التالي، وأنبأني أن أمه رشحت لي فتاة تُدعى "هبة" وأنها لم تتجاوز العشرين من العمر، وتحرص على حفظ القرآن وحضور دروس العلم في المساجد، وكان أبوها خبَّازًا يعمل في أحد أفران صناعة الخبز ويُدعى "عبد الباسط"، أما أمها فكانت من المقربات إلى أم "عمر".

وقد تم الاتفاق على لقاء مع أبي الفتاة، وكانت أم "عمر" قد تكفلت بتعريفه بحالي قبل أن ألقاه، فذهبت إليه في الموعد المتفق عليه، فاستقبلني بترحاب بالغ، ودار بيننا حوار قصير سألني فيه عن عملي وعن المكان الذي أزمع الإقامة به بعد الزواج، ثم أعرب عن موافقته على الخطبة، بشرط موافقة ابنته، ولم أكن قد رأيتها من قبل، فدعاها لأراها وتراني، ثم سألته الإذن بالانصراف بعد أن أخبرني أن القرار الأخير سيأتيني خلال عدة أيام.

لم أكن قد أخبرت أحدًا من أهل بنها بأمر سجني، وكنت أحاول أن أنسى تلك الذكرى الأليمة، فأدرأها بالانشغال عنها كلما طافت بعقلي، وطالما سعيت إلى إيهام نفسي بأن أيام السجن لم تكن سوى أضغاث أحلام، فالنفس قد تأنس بالوهم إذا آلمتها

الحقيقة، ولذا ترددت كثيرًا في إخبار أبي الفتاة "عبد الباسط" بأني مكثت في السجن شهورًا مريرة، ثم عقدت العزم على إخفاء الأمر عنه خشية فتح باب للتوجس والريبة.

دعاني "عبد الباسط" إلى زيارته بعد أسبوع، فلما ذهبت إليه بدا الفرح والبِشْر من كلماته، وبعد عبارات الترحيب المعتادة قال: أعتقد أننا لن نجد لابنتنا زوجًا خيرًا منك.

قلت: أسأل الله أن يجعلني عند ظنك بي دائمًا.

قال: وسندع لك تحديد المهر بما يناسب حالك.

قلت: أشعر بالحياء من هذه الثقة المطلقة.

قال: لو لم نثق بك لما وافقنا على زواجك من ابنتنا.

قلت: وسأكون أهلاً لتلك الثقة إن شاء الله، سأجعل المهر ثلاثين جرامًا من الذهب.

قال: فلتجعله أربعين، كي لا تشعر الفتاة أنها أقل شأنًا من قريناتها.

قلت متبسمًا: فليكن أربعين جرامًا.

قال: ومتى تريد الزفاف؟

قلت: بعد شهرين، إذ أن شقتي قديمة ويلزمني بعض الوقت لتجديدها.

قال: وماذا تطلب لتجهيز شقتك؟

قلت: لا شيء، فليست المشاركة في التجهيز واجبةً علي الزوجة.

فرفع حاجبيه وقال بدهشة: ولكن الناس جميعًا أوجبوا ذلك!

قلت: وما أدراك أنهم أجمعوا على إيجاب مشاركة الزوجة في التجهيز؟

قال: لم أسمع قط بمن خالف ذلك.

قلت: انتفاء العلم لا ينفي الوجود، ومشاركة الزوجة في التجهيز أصبح عادة شائعة، ومع قصور العلم وضعف العقول فإن الشيوع يُضفي إيجابًا شرعيًا زائفًا على أمور غير واجبة في الشرع.

قال: سبحان الله.

كان "عبد الباسط" عاميًا، ليس عنده إلا قدر يسير من العلم، وكان بسيطًا يدع الأمور تمضي دون تعقيد، ولم تكن ابنته "هبة" جميلة، ولم يكن الجمال يعنيني، فطول

المعاشرة يُفقد جمال الصورة طرافته كما يُفقد قبح الصورة سماجته، ولا يبقى إلا حسن الخلق وصلاح العمل، فهما الدافع الحقيقي إلى نشوء المودة والرحمة بين الأزواج.

وقبيل موعد الزفاف ذهبت إلى القاهرة في يوم جمعة لأدعو عمي إلى وليمة العرس، وتذكرت درس الجمعة الذي كنت أحضره مع "أحمد" في مسجد الرحمة عقب صلاة المغرب، وشعرت بحنين إلي حضور ذلك الدرس، فتوجهت إلي مسجد الرحمة ووصلته مع أذان المغرب، فلما دخلته أدهشني قلة روَّاده، فذلك يخالف آخر عهدي به قبل عامين، ولما أقيمت الصلاة تقدم إلى الإمامة رجل حليق الشارب واللحية يجر ثوبه جرًا، فكرهت أن أصلي خلفه، وخرجت من المسجد لا ألوي على شيء، وانقضت الصلاة سريعًا، إذ نقرها الإمام نقرًا، وخرج المصلون مُهطعين، وصار المسجد مهجورًا، فدخلته مرة أخرى وصليت منفردًا، وعقب الصلاة تكالبت عليَّ التساؤلات عما حلَّ بالمسجد، وتذكرت "حمزة الأناضولي" الذي عرَّف المسجد إليَّ، والذي دعاني و"أحمد" إلى اللحاق بتدريب السلاح، وتساءلت: أهو حر الآن أم يتيه في غياهب السجون؟

وأخذت قراري سريعًا بالتوجه إلى منزل "حمزة" للسؤال عنه، فلما طرقت الباب فوجئت بحمزة يفتحه، تلاقت نظراتنا، وبدا أنه لم يتذكرني، فقلت: السلام عليكم.

قال: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

وصَمَتَ قليلاً، ثم صاح: "خالد"، مرحبًا بك يا أخي، تفضل بالدخول.

قادني إلى إحدى الغرف، وقال بشغف: كيف حالك وحال أخينا "أحمد".

قلت: الحمد لله على كل حال.

قال: وأين الأخ "أحمد" الآن؟

قلت: قُتل في السجن.

قال بحزن: إنا لله وإنا إليه راجعون، لقد قُتل أخ آخر تحت وطأة التعذيب في السجن.

قلت وأنا أنظر إلى أثر جرح عميق في رقبته: وماذا عنك؟ هل قُبض عليك في قضية السلاح؟

قال: نعم، وحُوكمت مع أكثر من خمسين أخًا.

قلت: وماذا كانت نتيجة المحاكمة؟

قال: حكم القاضي ببراءتنا جميعًا عدا ثلاثة إخوة حكم عليهم بالسجن، إذ وُجِّهت لهم تهمة السعي إلى حيازة سلاح دون ترخيص ومحاولة تكون تنظيم يهدف إلى الإطاحة بنظام الحكم.

قلت: الحمد لله، أعتقد أن المباحث لم تعثر على الأسلحة.

قال: هذا صحيح، ولو عثروا عليها لَحُكم علينا جميعًا بالسجن، وربما الإعدام.

قلت: وكيف ثبتت التهمة على الإخوة الثلاثة الذين حُكم عليهم بالسجن؟

قال: شهد بعض الناس على دعوة هؤلاء الثلاثة إلى التدريب على استخدام السلاح وسعيهم إلى شرائه.

قلت وأنا أشير إلى جرح رقبته: وما سبب هذه الإصابة؟

قال: ذلك من أثر التعذيب، وما خفي تحت الثياب كان أعظم.

قلت: ما عجبت إلا من أمر هؤلاء الجنود الجلاوزة، كيف يعذبون الناس بهذه القسوة كأنهم آلات تخلو من المشاعر الإنسانية؟

قال: لا تعجب، فالمؤدون للخدمة العسكرية ينقسمون إلى قسمين، قسم يتوجه إلى الجيش، وآخر إلى الشرطة، ومن يتوجه إلى الشرطة لابد أن يكون أميًا جاهلاً لا يعرف كتابة اسمه، ومن يجهل جهلاً مُدقعًا يسهل توجيهه كالآلة، فجهله يُفقده القدرة على التمييز بين الحق والباطل، فيُساق كما تُساق الأنعام إلى حيث يريد قواده.

قلت: ولكن التعذيب الذي رأيناه ينفر منه الإنسان بالفطرة مهما بلغ جهله!

قال: فطرة الجاهل تُشوَّه بالتوجيه الآثم.

لذت بالصمت برهة متفكرًا في قوله الأخير، ثم قلت فجأة كأني تذكرت أمرًا: ماذا حلَّ بمسجد الرحمة؟

قال: تم ضمه إلى وزارة الأوقاف، وتعيين إمام حكومي فيه.

قلت متبسمًا: إمام حكومي!

قال: أعني لا يتكلم إلا بما يرضي الحكومة، فمثلاً يتجاهل أمور الجهاد، ويُسوِّغ التحالف مع اليهود عن طريق أقوال ملفقة.

قلت: لقد صُدمت العام الماضي عندما وُقِّعت (معاهدة كامب ديفيد) التي تُلزمنا بصلح مؤبد مع إسرائيل.

قال: هذه المعاهدة أظهرتنا كضعفاء يخشون القتال، وذلك سيحث اليهود على المضي في غيهم وإفسادهم في الأرض دون رادع.

قلت: لم تُظهرنا كضعفاء وكفى، بل أضعفت الحكومة، إذ أصبح الرئيس "السادات" معزولاً داخليًا وخارجيًا بعد تلك المعاهدة، فأكثر طوائف الشعب تعارض مسلك الرئيس، وجميع الدول العربية قطعت علاقتها بمصر، فكان ضعفًا على ضعف.

قال: وفوق ذلك ضعف العقيدة.

قلت: بل إفساد العقيدة، فرئيس جمهوريتنا لم يستح أن يصف دين اليهود بأنه دين سماوي من عند الله كأنه يساويه بالإسلام!

قال: ذلك في إطار دعوة خبيثة إلى وحدة الأديان.

قلت متعجبًا: وحدة الأديان!

قال: نعم، يقولون إن الصفة المشتركة بين الأديان هي الإيمان بالله، وهذا العمل القلبي هو أصل الدين ومنتهاه، وربك رب قلوب.

قلت: (ربك رب قلوب)، لقد سمعت هذه الجملة من قبل.

قال: لا عجب في ذلك فهي تشيع في مصر بين العوام والراسخين في الجهل.

قلت: أقول دائمًا لو كان الجهل رجلاً لقتلته، نعوذ بالله من الجهل فهو أصل كل بلاء.

ساد صمت قصير، ثم استطردت: وليمة عرسي يوم الثلاثاء القادم، وأرجو أن تلبي دعوتي إليها.

فتبسم قائلاً: زواج مبارك فيه إن شاء الله، وأين مكانها؟

قلت: في منزلي ببنها.

قال: بنها!، إنه لطريق طويل.

قلت: لن يزيد عن ساعة في القطار.

قال: سأحضرها إن شاء الله.

فكتبت له عنواني في بنها، وودعته وداعًا حارًا وانصرفت.

(٢)

كانت أيامي بعد الزواج تفيض بالسكينة والطمأنينة والمحبة، وكانت زوجي حريصة على رضائي، فلم تراجعني كلامًا قط، ولم تتقاعس عن تلبية طلب لي، وقد حرصتُ على تعليمها أمور دينها عسى أن يكون ذلك عاصمًا لها من التردي في مزالق الجهل والهوى.

وبعد عام من زواجي وهبني الله ولدًا، سميته "غريبًا"، ولم يلق الاسم قبولاً عند أهل زوجي، إذ أرادوا أن يحمل الولد اسمَ جدِّه لأمه، وقد كان اختياري لذلك الاسم نابعًا من شعوري بالغربة، وأردت أن يكون ابني امتدادًا لي، فأنا لم أشعر قط بالانتماء إلى مصر كدولة تجمع بين المسلمين والنصارى وموحدي الأديان تحت قيادة حكومة متخبطة كانت بالأمس اشتراكية واليوم أصبحت ليبرالية وكانت بالأمس تقاتل اليهود واليوم تصالحهم وتُقر بدولتهم في فلسطين، بل كان انتمائي إلى دولة الخلافة الإسلامية التي أقمتها في مخيلتي وجعلتها تضم المسلمين جميعًا تحت إمرة إمام واحد، ففرضت على نفسي أن أبقى غريبًا ألوذ بما صنعه خيالي فرارًا من واقع بائس يحيط به سياج من جهل راسخ.

كنت حريصًا على زيارة "حمزة" كلما ذهبت إلى القاهرة لشراء بضاعتي من الكتيبات، وكان حديثي معه يدرأ شعوري بأني فريسة بين أنياب الغرباء، فهو أحد الذين حملوا السلاح يومًا سعيًا إلى إقامة خلافة إسلامية، وفي إحدى زياراتي قال لي: أبشر بثورة إسلامية قادمة.

قلت: أهو تدريب جديد على حمل السلاح؟

قال: لا، الأمر أكبر من ذلك.

قلت بلهفة: أفصح عما عندك.

قال: ليس عندي الكثير، الأمر يقوم على تحرُّك الشعب المصري لإسقاط الحكومة في موعد مجهول.

قلت: يا رجل قُل كلامًا يُعقل، كيف سيتحرك هذا الشعب الغارق في همومه وجهله، وإذا تحرك فمَن سيوجِّه تحركه؟

قال: الوعي الصادق والعلم كفيل بتحريك الشعب وتوجيهه.

قلت: قد مات الوعي، وعمَّ الجهل مُدقعًا.

قال: إذن فعلينا إحياء الوعي، وإزاحة الجهل.

قلت: وكيف ذلك؟

قال: بتوزيع الكتيبات والمنشورات التي تبين مخالفات الحكومة عن الإسلام، فينكشف الغطاء عن الأبصار.

قلت: وما المخالفات التي سيتم بيانها؟

قال: كأنك لا تعلم!

قلت: والله ما علمت مخالفة للحكومة أكبر من موالاة اليهود، والاعتراف بدولتهم.

قال: هذا فرع من أصل هو الحكم بغير ما أنزل الله.

ساد صمت قصير، ثم قلت: أنت تعلم رفضي قتال الحكومة، ففيه تُستباح دماء معصومة، وتُهدر طاقات كان من الأولى توجيهها إلى قتال اليهود.

قال: قد ناقشنا ذلك من قبل، ولنَدَع الخوض في مسائل الخلاف، سأعطيك بعض الكتيبات والمنشورات المطبوعة التي تكشف مخالفات الحكومة لتعرض الكتيبات مع بضاعتك، وتوزع المنشورات على من عرفت ومن لم تعرف، وليكن ذلك من باب تغيير المنكر باللسان.

قلت: لابد لي من الإطلاع عليها قبل أن أقبل توزيعها.

قال: لا بأس.

وأحضر بعض الكتيبات والأوراق المطبوعة، فوجدتها تنقد بحدة اعتراف الحكومة المصرية بدولة إسرائيل، كما نقدت بعض نصوص الدستور المصري، وبعض المنكرات التي تقرها الحكومة كتصنيع الخمر والربا وفتح ملاهي البغاء، ولم تشتمل على أكثر من وضع أعمال الحكومة في ميزان الشرع، إذ خلت الكتيبات والمنشورات من أي تحريض على الخروج على الحكومة أو تعريض به، فلم أرَ بأسًا في قبول توزيعها.

***

وضعت خطة لتوزيع المنشورات في مدينة بنها على المصلين عند خروجهم من المساجد، كما عرضت الكتيبات للبيع مع الكتيبات الأخرى التي أعرضها على عربتي الخشبية، وبعد أيام قلائل وبينما كنت أسير في الطريق دافعًا عربة الكتيبات شعرت بيد توضع على كتفي، ووجدت نفسي مُحاطًا بثلاثة رجال وقال أحدهم: الضابط يريد أن يتحدث معك.

ثم جذبوني صوب سيارة شرطة يقف بجوارها ضابط، فقال الضابط لرجاله: أحضروا الكتيبات والمنشورات من العربة.

فهرع أحد الرجال إلى جمع الكتيبات والمنشورات في صندوق كبير، ودفعوني إلى سيارة الشرطة، فزعزعت المفاجأة كياني، وخفق قلبي بشدة، وأَرتج صدري، ورُسم أمام ناظريَّ صور أيام الفتنة الأولى في سجن القلعة، ولاحت ذكريات طالما حاولت نسيانها.

سارت بنا السيارة إلى مقر مباحث أمن الدولة في بنها، وجردوني من كل ما معي، ووضعوني منفردًا في حجرة تشبه الزنزانة، مكثت بها ثلاثة أيام، وكانوا يسمحون لي بالذهاب إلى المرحاض والوضوء والصلاة كلما طلبت، ومع ذلك كنت أتخبط بين الوساوس، واضطرم صدري كأتون يلتهب بالهواجس، فأنا مسؤول عن زوجة وابن لا يزال في شهوره الأولى، وقد عُدمت السبيل إلى إخبار زوجي بحالي، ولا ريب أن غيابي المفاجئ سيوقعها فريسة للقلق والحيرة.

وفي اليوم الرابع من احتجازي أُخذت إلى غرفة مكيفة الهواء ،كان فيها مكتب ويجلس خلفه ضابط ذو رتبة عسكرية عالية، فوضع بعض الكتيبات والمنشورات التي أعطاها لي "حمزة" على مكتبه وبادرني الحديث قائلاً: من أعطاك هذه الكتيبات والمنشورات؟

قلت: الكتيبات اشتريتها من القاهرة.

قال بصوت يوحي بنفاد الصبر: لا أريد إهدار وقتي في مراوغات، فعندنا ما هو أهم منك كثيرًا، ونحن نعرفك جيداً، وملفك عندنا مسجل به تاريخك مع المتطرفين، فاحترم عقلي وأجب جوابًا معقولاً.

شعرت ببعض التوتر، وتحيَّرت في إيجاد جواب مقبول، وبدا لي أن الضابط يظن أني حصلت على الكتيبات والمنشورات من أناس في بنها تربطني بهم صلة، فقلت: ليس في

الكتيبات والمنشورات سوى نقد بعض أفعال الحكومة المخالفة للشـريعة الإسـلامية، وهذا جزء من حرية التعبير عن الرأي الذي تتبناه الدولة.

بدت الدهشة على وجه الضابط كأنه لم ينتظر مني دفاعًـا عـن محتـوى الكتيبـات والمنشورات، ثم قال: وأنا قد أتفق مع بعض ما جاء في المنشورات، ولكن عند تعارض آرائنا مع مصلحة الدولة فيجب تقديم مصلحة الدولة، ومنع إشاعة الأفكار التي قـد تثير الاضطراب والفتن، والآن أخبرني مَن أعطاك الكتيبات والمنشورات؟

قلت: أنا أتاجر في الكتيبات الدينية وأذهب إلى القاهرة كل شهر لشراء بضاعتي، وقد اشتريت هذه الكتيبات مع بضاعتي، أما المنشورات فقد قابلت رجلاً يوزعها في منطقة (العتبة) بالقاهرة فأعجبني محتواها فطلبتُ إِلَيْه أن يعطيني بعضها لأوزعه.

قال: ومن أين اشتريت الكتيبات.

قلت: من بائع متجول يعرض بضاعته على أرصفة الطرق.

قال: ومَن أعطاك المنشورات؟

قلت: لا أعرفه.

قال: أنت إذن تريد أن تبقى عندنا بعض الوقت.

ثم أمر أحد الجنود بإعادتي إلى حجرة الحبس، قبعت في الحجرة وظل يرن في عقلي قول الضابط: (وأنا قد أتفق مع بعض ما جاء في المنشورات، ولكن عند تعارض آرائنا مـع مصلحة الدولة فيجب تقديم مصلحة الدولة، ومنع إشاعة الأفكـار الـتي قـد تـثير الاضطراب والفتن)، وحدثت نفسي: إن كان قول الحق سيثير الاضطراب والفـتن في الدولة، فذلك يعني فساد حال الدولة التي تتعارض مصلحتها مع الحق، فـإن كـان الضابط يعلم ذلك ويقر باتفاقه مع بعض ما جاء في المنشورات، فما الذي يحمله علـى الحرص على دوام الفساد؟ لعله يختلق من أوهام الوطنية الزائفة مبررًا لفعله تأنس بـه نفسه، أو لعله كابد صراعًا بين عقله وواجب وظيفته فهُزم العقل!

وبعد أسبوع أخذوني إلى غرفة بها منضدة يجلس خلفها شرطي، فأعطاني بطاقة هـويتي وبعض النقود والأوراق التي جردوني منها عندما احتجزوني، وطلب إليَّ التوقيع علـى

بعض الأوراق ثم أمرني بالانصراف، فلما سألته عن بضاعتي من الكتيبات أخبرني أنها صُودِرت، ولا يمكنني استعادتها.

هرعت إلى منزلي، فلما دخلته ورأتني زوجي جش صوتها بالبكاء، وكانت أمها معها، فقالت الأم: الحمد لله على سلامتك، ثم تركتنا وانصرفت، شعرت بمغزى مبهم في لهجة حماتي، ولكني لم أحفل به، إذ توجَّهت طاقة عقلي جُلها إلى زوجي وابني.

أسرعت زوجي لتُعد الطعام، وحملتُ ابني الرضيع "غريب" وقد امتلأ قلبي شوقًا إليه، وجعلت أُقبّله وأداعبه، فلاحت على شفتيه ابتسامة وهو يحاول العبث بلحيتي، فذابت همومي، وجذبني إلى عالم براءته، ونسيت المآسي التي تتبعني كظلي، وتلوّث خاطري بذكريات ممقوتة، وشر مُرتقب.

جلست مع زوجي على مائدة الطعام، فقالت: ماذا فعلوا بك؟

دلَّ سؤالها على أنها تعلم سبب غيابي، وكنت أحسبها تجهله، فقلت: صادروا الكتيبات.

قالت: وماذا أيضًا؟

قلت: لا شيء، كيف علمتِ بأمرهم؟

قالت: جاءوا لتفتيش الشقة في اليوم التالي لتغيبك، واحتجزوا أبي يومًا كاملاً في قسم الشرطة.

شعرت بانقباض في صدري، وأسفت لجر حماي إلى دوامتي، وقد كنت حريصًا على إخفاء أمرها عنه، كي لا ينطفئ البِشر الذي يشع من وجهه دائمًا، ولكن يبدو أن الدوامة كانت أقوى من أن تتوارى خلف الأيام المنصرمة، فأبت إلا الاندفاع لتبتلع من تجده في طريقها.

نظرت إلى وجه زوجي ولم يخف عني ما طرأ عليه من تغير، فرأيته وقد ذهبت بشاشته، وانطفأ بريقه، وغشيته سحابة من الحزن.

وقطعت زوجي استرسال تأملاتي قائلة: وهل صادروا عربة الكتيبات؟

تذكرت العربة التي تركتها في عرض الطريق منذ عشرة أيام، فقمت من فوري قائلاً: لقد تركتها في الطريق، سأذهب لأحضرها.

فلما وصلت المكان الذي تركت فيه العربة لم أجدها، سألت بعض القاطنين بالمكان عنها فلم يفيدوني بشيء، وقال لي حارس بناية قريبة أنه رأى العربة ساكنة حتى مساء يوم القبض عليَّ وفي الصباح لم يجدها، ورجَّح أن تكون قد سُرقت، فعدت إلى منزلي أجرُّ إحباطي وحسرتي.

ألقيت بنفسي على الأريكة، وتنهدت بعمق محاولاً طرد حزن يجثم على صدري، وكأن زوجي قرأت ما حدث من صفحة وجهي فقالت: هل ضاعت العربة؟

قلت بصوت مخفوض: نعم.

قالت: لا تحزن، يمكنك شراء عربة جديدة.

قلت: لم أدخر ما يمكنني من شراء عربة جديدة فنفقاتنا كثيرة.

فأسرعت وأحضرت مهرها ومدَّت يدها إليَّ به قائلة: لعل هذا الذهب يساعدك.

فقبضت على يدها الممدودة وقبَّلتها، وقلت: احتفظي بمهرك، سأجد مخرجًا إن شاء الله.

فقالت: يسوؤني أن أراك حزينًا هكذا.

قلت: عسى الله أن يجعل بعد ضيقنا فرجًا.

وارتفع بكاء "غريب" فهرعت زوجي إليه، وقبعت أدعو الله أن ييسر لي أمري، حتى إذا حلَّ المساء جاءني حماي "عبد الباسط" وكان وجهه شاحبًا ورمقني بنظرات حادة صوبها إليَّ من تحت حاجبين مقطوبين، ثم قال بصوت لم يستطع إخفاء ما فيه من غضب: لماذا أخفيت عنا ماضيك في السجن.

قلت بهدوء: لم أشأ إثارة هواجسكم.

قال: هواجسنا ليست من شأنك، كان عليك أن تكون صادقًا، ولا تخفي أمرًا كهذا.

قلت: ربما أكون قد أخطأت.

قال: بل أخطأت وها نحن نجني أشواك خطئك.

قلت: اللوم لن يغير من أمرنا شيئًا، فارْضَ بما قضاه الله، ولا تكن خصيمًا.

قال: أخبرني، بأي ذنب أُساق إلى مركز الشرطة وأُعامل كالأنعام بعد أن بلغت هذا العمر؟

قلت: قدَّر الله وما شاء فعل.

قال: إن أصررت على أفعالك المخالفة للقانون فلنفترق بالمعروف.

قلت بصوت يشوبه الحذر: ما تعني؟

قال: لن أقبل أن تبقى ابنتي تحت رجل منابذ للدولة فاقد الوطنية، يجرنا معه إلى متاعب وخيمة.

أشحت بوجهي، وشعرت بثقل خانق في صدري، ثم قلت: وماذا تريد الآن؟

قال بحدة: أريد وعدًا بألا تعود إلى مخالفة القانون والنشوز من الحكومة، وأن تقطع صلتك بكل من يفعل ذلك.

قلت بهدوء وحزم: لا أستطيع أن أعدك بذلك.

لاذ حماي بالصمت، ولاح على وجهه الذهول كأنه لم يحتسب هذا الرد، ثم صاح بصوت أجش: طلِّق ابنتي.

قلت: لن أطلقها.

فقال بلهجة باردة قاسية: سأجد سبيلاً إلى إجبارك على طلاقها.

ثم انصرف، فأقبلت عليَّ "هبة" تحمل رضيعها والدموع تتسابق للفرار من عينيها بعد أن سمعت حديثي مع أبيها، ولم ينطق لسانها بكلمة ولكن نطقت عيناها بالكثير، فحاولت احتواء جزعها بابتسامة، وربت على كتفها، وأخذت منها "غريب"، وقد منعه حجاب العقل أن يدرك حالنا، فلاحت على وجهه ابتسامة سعادة، وحملتني سعادته على أن أهيم معه في عالم من الهدوء والسكينة.

***

اشتريت بضاعة جديدة من الكتيبات، واتخذت مكانًا أمام بوابة أحد المساجد لعرضها، وذات مساء عدت إلى منزلي فوجدت "هبة" تحمل ابني وقد ارتدى ثوبًا أحمر، وكنت أكره اللون الأحمر في الثياب، فقلت لها: ألا تعلمين أن الثياب الحمراء ميَّزت المشركين في العصور القديمة؟

قالت: بلى، ولكن أمي أهدت إليه هذا الثوب فكرهت أن أردّه.

قلت: وأنا أكره أن يرتدي ابني ثوبًا يذكرني بالشِّرك والسجن.

قالت: أيذكرك بالسجن؟!

قلت: نعم، فمن يُحكم عليه بالإعدام، يُفرض عليه ارتداء ثوب أحمر في السجن إلى أن يتم إعدامه، وقد رأيت بعض هؤلاء.

فقالت وهي تنزع الثوب الأحمر: سيكون هذا اليوم هو أول وآخر عهدك برؤيته.

كانت الأصوات المعارضة لسياسات الحكومة في ذلك الوقت قد بدأت تعلو من كافة الأحزاب والفِرَق على اختلاف توجُّهاها، فأصدر رئيس الجمهورية قرارًا باعتقال ألف ونيف من المعارضين السياسيين، وأصبحت الدولة تشبه سجنًا ذا جدران من المحظورات الحكومية.

ومع أن رئيس الجمهورية كان قد اتخذ اليهود أحباء وأقرَّ بشرعية دولتهم ودينهم وزارهم في عقر دارهم زيارة الخليل المحب، إلا أنه أصر على أن يبقى يوم النصر عليهم في عام ١٩٧٣عيدًا قوميًا يُحتفل به كل عام، وكنت أرى أن الأولى به أن يطمس تلك الذكرى التي تؤلم أحباءه، ولكنه أبى إلا اختيار التناقض حسبما رأيت، فجاء مقتله أثناء احتفاله بذلك اليوم عام ١٩٨١ بأيدي نفر من الجيش ينتمون إلى جماعة إسلامية عُرفت بجماعة الجهاد.

جاء خبر مقتل الرئيس كريح صرصر عاتية، فبلغت القلوب الحناجر، وحُظر التجول، وانتشرت فِرَق الجيش في الشوارع، وتذكرت مقولة "حمزة": (أبشر بثورة إسلامية قادمة)، فخرج حلمي بدولة الخلافة الإسلامية من مكمنه في ظلمات عقلي، وتمثَّل الحلم أمام ناظريَّ كجبل لا يتزعزع، ومضى خيالي يضع أسس بناء دولة الخلافة ويتوهم انطلاقها من مصر لتفتح العالم وتجمع المسلمين جميعًا تحت إمارة إمامهم، ومرت أيام كرؤيا مُبشِّرة، ثم أفقت مصطدمًا بصخرة الواقع بعد أن تبينت حقيقة الأمور، وأن ما حدث لا يتعدى ثورة زائفة بدون ثوَّار، وأعلنت الحكومة سيطرها على مقاليد الحكم وتعيين نائب الرئيس المقتول خلفًا له.

جعلت أجادل نفسي محاولاً بعث الأمل فيها، فقلت لها: يا نفسي، الحكومة تكذب لتثبيط همم الثائرين، أتصدقين من سقطت عدالته؟، لقد أنبأني "حمزة" بثورة إسلامية قادمة، وما كان "حمزة" كاذبًا قط، اذهبي إليه يا نفسي ليدحض تلك الأكاذيب.

توجهت من فوري إلى القاهرة للقاء "حمزة"، فلما طرقت باب منزلــه فتحــت أمــه وأخبرتني بأنه قُبض علي "حمزة" منذ يومين، كما تم القبض على كل من يــربطهم بــه صلة، وسألتني الدعاء له، فتركتها لا ألوي على شيء، وتملكــني شــعور بالإحبــاط والحسرة، وحاولت نزع نفسي من ذلك الشعور، فاستعذت بالله منه، وتذكرت ابــني الرضيع "غريب"، فتبسمت من تذكره، واشتريت له ثوبًا جديدًا، ولعبة كهيئة سيارة.

عاد بي القطار إلى بنها، وبينما كنت أقترب من منزلي، رأيت على إحدى نوافذ شقتي الثوبَ الأحمر الذي كان "غريب" يرتديه بالأمس، كان الثوب معلقًا في وضع يلفــت النظر، توقفت عن المسير موجهًا بصري صوب النافذة، فرأيت زوجي خلف النافــذة تنظر إليَّ وتُحرِّك رأسها يمنة ويسرة، أدركت على الفور أن هناك من يتربص بي عنــد المنزل أو داخله، فسقط الثوب الجديد واللعبة من يدي، ومشيت في اتجاه آخر.

كنت أرى الأحداث قد تطورت مرة أخرى لتنغص عليَّ صفو حياتي، وبدا أن عهدي بالشقاء سيكون طويلاً، فكلما يلوح بصيص صفاء تبتلعه أمواج النكبــات العاتيــة، فأوصيت نفسي بالصبر، ولذت بالمساجد أيامًا عديدة، ولكني لم أطق الصبر على فراق زوجي وابني، وكان قد غلب على ظني أن هناك مَن يراقب منزلي، فانتظرت حتى جنَّ الليل ولبست جلبابًا قديمًا، وأشبعت شعر وجهي بدقيق الخبز فصار أبــيض اللــون، ووضعت عمامة على رأسي، وأحنيت ظهري، وتوكأت على عصا، وسرت بخطــوات بطيئة إلى منزلي، وكل من يراني يحسبني شيخًا طاعنَ السن، فلما دخلت شقتي جــرت زوجي إليَّ واحتضنتني وهي تبكي، فسألتها بلهفة: أين "غريب"؟

قالت بصوت أَبَحَّه البكاء: نائم في غرفته.

قلت: ماذا حدث في الأيام الماضية؟

قالت بجزع: يأتي رجال جلاوزة كل يوم لتفتيش البيت بحثًا عنك.

ثم استطردت: أيُّ جُرْم فعلته يا "خالد"؟

قلت: لم أفعل شيئًا.

نظرت إليَّ بريبة قائلة: لا تكذب عليَّ، كيف يُعقل أن يهدر هؤلاء الرجال أوقــاقم في البحث عنك دون سبب؟

قلت: يبدو أهُم يسعون خلفي بدافع من تاريخي الذي تعرفينه.
قالت: يثقل على عقلي قبول ذلك السبب.
قلت: ومتى لقيت أفعال الذين لا يعقلون قبولاً عند العقلاء؟
قالت: عليك أن تنصرف الآن، فإني لا أدري متى يعود الجلاوزة.
صمت برهة أفكر ثم قلت: لماذا لم تأت أمكِ لتمكث معك إلى أن تنقشع هذه الغيوم؟
قالت: لقد حاولَت أمي إكراهي على الذهاب إلى مترل أبي، فأبيت الخروج دون إذن منك.
شعرت أن "هبة" تُخفي شيئًا، فقلت: وماذا فعل أبوكِ؟
فأشاحت بوجهها وعاودها البكاء، ثم قالت وهي تحاول مقاومة بكائها: قُبض على أبي منذ يومين، وهو محتجَز الآن في مركز الشرطة التابع لمنطقتنا، ولما ذهب أخي للسؤال عنه أخبروه أن أبي سيبقى رهينة عندهم إلى أن نرشدهم إلى مكانك.
كان قولها شديد الوقع على نفسي، وشعرت بأن الأرض تضطرب من تحتي، وتخيلت حماي يكابد الحبس، فضاق صدري، وخرجت أنفاسي مكتوية بلهيب الشفقة، ولبثت قليلاً أفكر فيما يتعين عليَّ فعله، ثم عقدت العزم على الذهاب إلى مركز الشرطة وتسليم نفسي، فأنا أقدر من حماي على تحمل الحبس.
كنت جائعًا، فطلبت إلى زوجي إعدادَ طعامٍ، ثم اغتسلت وصليت ولبست أفضل ثيابي، وجلست مع "هبة" وبين أيدينا مائدة الطعام، ولم أشأ أن أخبرها بما عزمت عليه، فجلسنا نأكل صامتين، حتى إذا انتهينا جعلت أنظر إليها كأنما أحاول حفظ وجهها في عقلي فإني لا أدري متى سأراه بعد هذه الليلة، ثم قمت فذهبت إلى غرفة ابني الرضيع "غريب" وكان نائمًا، فوقفت أتأمله مليًا ثم قبَّلته، وتوجهت صوب باب المترل، فنادتني زوجي: يا "خالد"، أين ستذهب؟ وماذا ستفعل؟
قلت متبسمًا بمرارة: غدًا ستعلمين؟
قالت: أخبرني ولا تدع الظنون تعبث بعقلي.
قلت: عبث الظنون قد يكون أهون من وطأة الحقيقة.
وأسرعت خارجًا قبل أسمع منها تعقيبًا.

سرت بخطوات متثاقلة إلى مركز الشرطة، وعند بوابة المركز استوقفني أحد الجنود سائلاً إياي: ماذا تريد؟

قلت: أنا مطلوب هنا، وجئت لتسليم نفسي.

نظر الجندي إليَّ بريبة ثم قام بتفتيش ملابسي ولم يكن معي شيء سوى بطاقة هويتي ومصحف، فلما تيقن أني لا أحمل سلاحًا اصطحبني إلى غرفة يجلس فيها ضابط خلف مكتب، ويقف أمامه عدة جنود ونفر من الرجال وكانوا مكبلي الأيدي، وصاح الجندي: هذا الولد يقول أنه مطلوب وجاء لتسليم نفسه.

نظر إليَّ الضابط وقال: ما اسمك؟

قلت: خالد عبد الله.

قال: وما قضيتك؟

قلت: لست أدري، لقد احتجزتم حماي "عبد الباسط خليل" عندكم منذ يومين بعد أن فشلتم في العثور عليَّ، وقد جئت لتسليم نفسي كي تطلقوه.

قال: هل معك بطاقة هوية؟

قلت: نعم.

وقدمت إليه البطاقة، فسجَّل بياناتها في أوراق أمامه، ثم أمر الجندي بوضعي في حجرة الحجز.

دخلت حجرة الحجز وأُغلق الباب، ووجدت نفسي وسط طائفة من الرجال يوحي ظاهرهم بالإجرام، كانت رائحة الحجرة كريهة، فهي مزيج من رائحة العرق، والأجساد القذرة، والبول والغائط المتجمع في دلو، وكان المكان يضج بأصوات متداخلة، وعادت بي الذاكرة أربع سنوات مضت، عندما دخلت حجرة حجز تشبه هذه الحجرة مع "أحمد عاطف"، وتذكرت ما تبعها من أهوال في سجن القلعة، فجعلت أستعيذ بالله من شياطين الإنس، دارت عيناي في الحجرة فوقع بصري على بعض الرجال الذين بدت عليهم علامات الصلاح، كانوا يجلسون في أحد الأركان، فدنوت منهم وألقيت السلام، فردوا جميعاً السلام، فسألتهم: ما تهمتكم؟

رد أحدهم: لا تهمة لنا.

قلت: ولماذا أنتم هنا؟

رد آخر: تجري هذه الأيام اعتقالات عشوائية لكل من تربطه صلة بجماعة ذات توجه ديني، ونحسبك مثلنا، أليس كذلك؟

قلت: بلى.

قال: لا تقلق، لعل هذا الفعل تتخذه السلطات الحاكمة من باب الاحتياط، وسنخرج إلى الحرية قريبًا إن شاء الله.

قلت: عسى الله أن يجعل الأمر كما تقول.

كنت بحاجة إلى هذا الأمل كي لا أغرق في بحر القنوط، وغاص عقلي بين ذكريات أيام الأَسْر الأول، ورحت استحضرها وأتفكر فيها بقلب كسير، ثم أدعو الله أن يصرف عني الفتن، وأن يحفظ زوجي وابني سالمين.

مكثت في حجرة الحجز أربعة أيام، تمكنت فيها من رؤية عتاة الإجرام المتهمين بالسرقة والبلطجة والاغتصاب والقتل، وإن الأنعام لو عقلت لأبت التشبه بهم، كنا نصلي فيسخرون منا، وفي سكون الليل نصحو على أصوات شجارهم وشتائمهم، وإذا تكلموا دل كلامهم على غباء يتبرأ منه أكثر الناس جهلاً.

وفي اليوم الخامس جاء جندي فناداني مع الإخوة الذين تعرَّفتُ إليهم في حجرة الحجز، وأُدخلنا في (سيارة الترحيلات) الشبيهة بالسجن المتنقل، وسارت بنا السيارة وكانت تتوقف كل فترة عند مركز شرطة لينضم إلينا بعض الإخوة من المنتمين إلى الجماعات الدينية، ازدحمت السيارة ولم يعد فيها موضع قدم، فسارت بنا مدة ناهزت الساعتين، ثم وصلنا سجنًا عرفت فيما بعد أن اسمه (سجن استقبال طُره)، فخرجنا من السيارة، ووُضعت العصائب على أعيننا، وتكرر ما حدث عند وصولي سجن القلعة منذ أربع سنوات، إذ انهالت علينا الصفعات والركلات ولسعات حبال كأنها سياط، وأمطرنا الجنود بسيل من الشتائم، ثم وقفنا في مكان لم نتبيَّنه بعد أن حُجِبَت أبصارنا، واخترق أسماعنا صوت أجش نادى أسماءنا فردًا بعد الآخر، حتى إذا سمعت اسمي أجبت فأُخِذت إلى زنزانة يشاركني فيها تسعة رجال وكنت عاشرهم.

وعند دخولي الزنزانة كان رفاقي التسعة يتلون القرآن، فاستبشرت بما وجدته منهم، كانت الزنزانة واسعة، وكان فيها مرحاضٌ، ومصدر للمياه وصنبور، فحمدت الله أن عافاني من مشكلة فقدان الطهارة التي تجرعت خبثها في سجن القلعة، وبعد دقائق ارتفع أذان الظهر من مكان ما في السجن، فقمنا وصلينا في جماعة، ثم بدأت التعرُّف إلى رفاقي التسعة، كان ستة منهم ينتمون إلى الجماعة الإسلامية، وكان الآخرون ينتمون إلى جماعة الإخوان المسلمين، ولما سألوني عن الجماعة التي أتبعها، أخبرتهم بأني سأتبع جماعة المسلمين وإمامهم عند ظهورهم، ولن يكون لي صلة بأي فرقة أو جماعة غيرهم.

كان الأذان يرتفع كلما دخل وقت الصلاة، فحسبت أن في السجن مسجدًا، ولكني علمت أن أحد المسجونين يتطوع بالأذان من زنزانته، وبعد أذان العشاء بساعة أو يزيد، بدأت أسمع صرخات التعذيب ونباح الكلاب، كانت الأصوات تصلني كزوابع تطيح بأفكاري إلى ذكريات أيام نحس ذقت فيها مُر العذاب في سجن القلعة، فقبعت بجوار الحائط، وأغلقت عينيَّ، ولبثت أرتقب شرًا مُنتظرًا.

***

كانت الأيام تمر ثقيلة، وكنا نتشاغل بقراءة القرآن وتدارس آياته، ولم أخرج من الزنزانة قط إلا بعد شهر كامل، إذ ساقني الجنود غرفة التحقيق، وهناك وجَّه ضابطٌ إليَّ عدة أسئلة كان أكثرها عن درجة معرفتي ببعض الرجال، وكان أمامه ملف عليه اسمي، وبدا عليه الملل وهو يسجل أجوبتي دون أن يراجعني، ثم أمر بإعادتي إلى الزنزانة.

ومع أن أصوات المعذبين كان تحاصرنا من المساء حتى مطلع الفجر، إلا أني لم أتعرض للتعذيب قط، ولكن عويل أصحاب الأجساد المعذبة كان استصراخًا يلقي في نفسي شعورًا بالقهر وقد عجزت أن أصرخهم.

توطدت صلتي بأحد رفاق الزنزانة بعد أن علمت أنه كان صديقًا مقربًا من "حمزة الأناضولي"، كان يُدعى "وليد صالح" وكان أحد الذين شاركوا في التدريب المسلح الذي دعاني إليه "حمزة " يومًا، ولكن المباحث لم تُرشد إليه آنذاك، لذلك لم يرد اسمه مع المتهمين في تلك القضية.

وبعد ثلاثة أشهر أُذن لنا بكتابة الرسائل إلى أرحامنا وأصدقائنا، كما أُذن لهم بزيارتنا، فكتبت إلى "هبة" رسالة جاء فيها: (زوجتي الحبيبة، أكتب إليك هذه الرسالة من سجن استقبال طُره، إذ أُسجن في زنزانة مع إخوة في الله يؤنسون وحشة السجن، ولم يتم التحقيق معي بما يدل على توجيه اتهام إليَّ، لذا أشعر بأني سأخرج قريبًا، الطعام هنا لا بأس به، وزيارات الأهل مسموح بها، وكذلك يمكنك كتابة الرسائل إليَّ، ولكن الرسائل تُفتح قبل أن نتسلمها، أرجو أن تأتي لزيارتي مع أبيكِ وأخيكِ وابني "غريب"، فإني اشتقت إلى رؤية وجهه البريء، كما أرجو أن تحضري معك بعض ثيابي الثقيلة، فالبرد هنا شديد، وأقرئي أهلَك جميعًا سلامي، وأسأل الله أن يحفظكم ويصرف عنكم كل سوء).

مكثت أعدُّ الأيام منتظرًا زيارة زوجي أو وصول رسالة منها، ولكن الأيام مرت دون أن يكسر جمودها زيارة أو رسالة، بينما انهالت الرسائل والزيارات على رفاقي في الزنزانة، فغلب على ظني ضياع رسالتي، فكتبت إلى "هبة" رسالة ثانية وثالثة وكنت أكتب إليها رسالة كل أسبوع دون جدوى، ولبثت شهورًا متعلقًا بأمل زائف ثم بدأ أملي يخفت ويتراجع خلف جبال اليأس، وران على قلبي السأم والوحشة، وشعرت بنفسي تهوي في ظلمة الحيرة، وخرجت الظنون السيئة من تحت أنقاض آمالي المنهارة، فكابدت ظنوني ساعاتٍ طويلة كل يوم مكثت فيها ساهمًا شاردَ الفكر.

وبعد عام ونصف من الحبس، جاءتني رسالة فخفق قلبي فرحًا، وأمسكت ظرف الرسالة لأتأمله بشوق، وفتحته بيد مرتعشة، وجرت عيناي على سطوره، فإذا به صورة من حكم قضائي بتطليقي من زوجي، شَلّت المفاجأة عقلي، فمزقت الرسالة بيدين مضطربتين، وصِحْت بأعلى صوتي: لا..لا.

ارتد الصوت على حوائط الزنزانة، ونظر رفاقي إليَّ بريبة وإشفاق، وتهاويت على الأرض، وأخفيت وجهي بكف يدي اليمنى، وجرت دموعي لتأخذ في طريقها بقايا أمل محطم.

(٣)

خرجت من السجن بعد عامين وثلاثة أشهر، كانت أيامًا طويلة سُرقت من حياتي ولا سبيل إلى ردِّها، وسُرقت معها أُسرتي، ووهن جسدي، ونبع من قلبي بُغضٌ لا ينضب، ووقف عقلي تائهًا لا يدري أين يُوجِّه ذلك البُغض، فعمَّ بُغضي كلَّ ما حولي، وتمنيت الخروج من هذه الأرض مهاجرًا إلى أرض أخرى.

بلغتُ شقتي في بنها، فلم يَبدُ فيها ما يدل على وجود حياة بشر، الأثاث علاه طبقات من الغبار، والعناكب نسجت بيوتها في كل مكان دون إذن كأنها ترتع في أملاكها الخاصة، وأجزاء من كُتبي انتقلت إلى بطون الفئران الجائعة، ملابسي كما تركتها في الصوان، وملابس "هبة" و"غريب" لا أثر لها، والثوب الأحمر لا يزال معلقًا في النافذة وقد ذهب احمراره، وحذاء صغير يخص ابني وُضع في أحد أركان غرفته.

نظرت إلى وجهي في المرآة فانقبض قلبي، ليس هذا الوجه الذي كنت أراه قبل سجني، تغيرت ملامحه كأنما أصبحت ملامح إنسان آخر، رأيت عيونًا ذابلة تحيط بها بوادر تجاعيد عابسة، وشعورًا بيضاء بدأت تشق سواد الرأس، وعظامًا بارزة من تحت جلد خشن.

ارتميت على الفراش فثار ما عليه من غبار وملأ صدري، فسعلت بقوة، ودمعت عيناي، فقمت وفتحت النافذة، فدخل منها خيوط ضوء شمس توشك على المغيب، راقبت انسحاب خيوط الضوء من الغرفة إلى أن غابت الشمس وغاب معها لحظات سعادة شهدتها هذه الغرفة قبل أن تقطعها الأيدي الغادرة.

غلبني النوم، فرأيت في نومي أني أدخل منزلي فأجده ذا جمال وبهاء، وتلقاني زوجي وقد لاح على وجهها الشوق والسعادة، ويجري ابني صوبي مناديًا إياي: أبي.. أبي، ثم يعانقني، فيخفق قلبي من السعادة، وأحمله وأُقبِّله، ثم يقول: أبي لا تفارقنا بعد اليوم، فأقول: لن أفارقكم أبدًا، ثم أجلس بين زوجي وابني لنتسامر وتغشانا الغبطة.

انتبهت من نومي، ومضت لحظات بين النوم واليقظة مرَّت فيها ابتسامة على شفتيَّ، وناديت ابني: "غريب"، ثم أدركت أنها كانت رؤيا، فحاولت العودة إلى النوم عسى أن

أكمل هيامي مع تلك الرؤيا، ولكن عقلي أفاق تمامًا، وتولَّت لحظات الوهم الجميل هاربة بلا عودة، وتركت وراءها حنينًا طاغيًا إلى ابني.

توجهت في الصباح إلى مترل "عبد الباسط" لأسأل عن ابني، فلم يكن الرجل بمترله، وأوقفتني زوجته بالباب دون أن تدعوني إلى الدخول، وقالت بجفاء: ألك حاجة عندنا؟

قلت: ابني.

قالت: ابنك لا يريد رؤيتك.

قلت محاولاً كظم غيظي: أريد تربية ابني.

قالت: أين ستربيه؟ في السجن؟

قلت بغضب هادر: ليس هذا من شأنك، أين "غريب"؟

ويبدو أن غضبي أثار خوفها، إذ نادت ابنها بصوت مرتعش، فأتي مهرولاً وقال: ماذا حدث؟

قالت وهي تشير إليَّ: هذا الرجل يتهجم علينا.

نظر ابنها إليَّ، ثم قال: أأنت "خالد"؟

قلت: نعم.

فنظر إلى أمه، وقال: اتركينا قليلاً.

فدلفت الأم إلى داخل المترل، ثم دعاني ابنها إلى الدخول، وجلسنا في ردهة المترل، وتذكرت اليوم الذي جلست فيه في هذا المكان عندما أتيت لأخطب "هبة"، قال: لا تؤاخذ أمي.

قلت: لا عليك.

قال: هل علمت أنه تم طلاقك من شقيقتي بحكم قضائي؟

قلت: نعم.

قال: لقد كانت تلك رغبة أبي، وقد عارضناها جميعًا، ولكنه أصرَّ على الطلاق.

قلت: هل أفهم من ذلك أنه لن يوافق على إعادتها إليَّ بعقد زواج جديد؟

قال: لا أمل في ذلك، وأنصحك ألا تحدثه في هذا الأمر لأنه أصبح سريع الغضب، وحلَّ به مرض (السكر)، ولست أدري ماذا أصابه بعد احتجازِه شهرًا في مركز الشرطة.

قلت: أتقول إنه احتُجِز شهرًا؟

قال: نعم، إذ تم القبض عليه كرهينة قبل القبض عليك.

قلت: ولكني قمت بتسليم نفسي بعد القبض عليه بيومين.

قال: لا علم عندي بما حدث منك، ولكن أبي مكث شهرًا في مركز الشرطة.

تنهدت بعمق، وساد صمت قصير ثم قلت: وأين ابني؟

قال: هو هنا بالمترل.

قلت: هل أستطيع رؤيته؟

قال: نعم، هذا حقك.

ثم قام وعاد مع طفل يناهز الرابعة من العمر، وقال محدثًا الطفل: يا "غريب"، هذا أبوك.

تبسمت، فها هو "غريب" الذي طالما داعبته عندما كان رضيعًا وقد كبر، وبدا أمام ناظريَّ إشراق أمل جديد كينبوع ماء وسط الصحراء، ومددت يديَّ داعيًا ابني إلى معانقتي، فنظر إليَّ بحذر ولم يحرك ساكنًا، اقتربت منه، فلاح على وجهه الخوف وأمسك بسروالِ خاله كأنه يستنجد به من خطر مُحَدِّق، فلما أوشكت أن أمسَّه بكى بذعرٍ وانطلق يجري إلى إحدى الغرف، فغاب أملي كما يغيب السراب في الصحراء.

هرع خالُه خلفه، مناديًا إياه، وسمعت بكاء الطفل كأنه يأبى العودة، فعاد الخال وحيدًا وقال: اعذره فهو لم يألف وجهك.

قلت بصوت لم استطع إخفاء ما فيه من حزن ومرارة: لماذا لم يصحبه أحدٌ لزيارتي في السجن؟

قال: هذا ما أراده أبي.

شرد خاطري برهة، ثم سألته: وكيف حال "هبة"؟

تردد قليلاً ثم قال: تمت خطبتها الشهر الماضي.

أذهلني جوابه، فتجمدت الكلمات على لساني هنيهة قبل أن أقول بصـــوت متلعـــثم: وهل وافقت؟

قال: نحن لا نُكرِه أحدًا على الزواج.

فُتح باب المترل، ودخل "عبد الباسط"، فلما رآني احمرَّ وجهـــه وصـــاح في ابنـــه: ألم آمركم بألا يدخل هذا الرجل مترلي؟

فقام الابن محاولاً امتصاص غضب أبيه، وارتفع صياح الأب معاتبًا ابنه، فخرجت مـــن المترل في هدوء.

سرت في الطريق غير متخذ وجهة، ودارت أفكار كثيرة في عقلي، لقد كرهت مـــترل "عبد الباسط"، ولكن حنيني سيدفعني إلى محاولة رؤية ابني، فكيف أراه وقد مكـــث في مكان أنفر منه ولا أستطيع العودة إليه؟، وكيف أتركه ليشب دون رعايتي وتوجيهي؟، إذن لابد لي من حضانته.

شعرت بالراحة عندما هداني تفكيري إلى ضرورة حضانة ابني، وعزمت على استشارة محامٍ في المسألة، فلما عرضت الأمر على أحد المحامين أخبرني أن القانون يعطي الأم حق الحضانة إلى أن يبلغ الطفل عامه العاشر، ولا سبيل إلى حضانتي للطفل قبل هذه السن، فخرجت من عنده أجرُّ إحباطي.

***

أصبحت منبوذًا من النفر القليل الذين أعرفهم في بنها، فعظمت غـــربتي، وشـــعرت بخمول يملأ كياني ويمنعني من عمل أي شيء، لم يعد عندي حماس للعمل وطلب الرزق، كنت أشعر بالسخط على عدوٍ مبهم كلما حاولت القبض عليه بأيدي الـــذاكرة فـــرَّ هاربًا إلى ظلمات النسيان، انتابني كسل فكري حملني على الإعراض عـــن الـــتفكير، كنت أمضي أكثر ساعات يومي نائمًا، نفدت أموالي القليلة، فاضطررت إلى بيع بعض أمتعة المترل، ومرت شهور وأنا على هذه الحال.

وذات يوم سمعت طرقًا خفيفًا على باب الشقة، فلما فتحت وجدت أمـــامي "حمـــزة الأناضولي" ورفيق الزنزانة "وليد صالح"، كانت رؤيتهما مرشدًا للسعادة كي تعـــرف الطريق إلى قلبي بعد أن فارقته طويلاً، عانقتهما بحب ودعوتهما إلى الدخول.

كان المترل يفتقر إلى الترتيب والنظام، وعلى المائدة بقايا طعام، فشعرت ببعض الحرج، وبادرني "حمزة" الكلام فقال وهو يبتسم: ماذا أصابك يا "خالد" تبدو كشيخٍ هرمٍ.

قلت: ليست السنون وحدها تورث الشيخوخة.

قال: أخبرني "وليد" أنك طلقت زوجتك.

قلت: لم أطلقها.

فنظر "حمزة" إلى "وليد" كأنه يطلب منه تفسيرًا، فقال "وليد" مخاطبًا إياي: ألم تخبرنا في السجن أنك طلقتها؟

قلت: لم أطلقها، وإنما هي طُلِّقت إكراهًا بحكم قضائي.

قال "حمزة" وقد عادت ابتسامته: لا بأس، فالمنتهى واحد وهو الطلاق، وكيف حال "غريب".

قلت بصوت يشوبه الحسرة: أصبح "غريب" غريبًا عني.

قال "حمزة": كيف؟

قلت: كلما ذهبت لرؤيته عند أهل أمه ينفر مني جزعًا.

فسألني "وليد" بدهشة : أيجزع من رؤية أبيه؟

قلت: نعم، كأن أهل أمه بثوا في نفسه شيئًا يحمله على ذلك.

قال "حمزة": سيزول كل ذلك إن شاء الله عندما يكبر الولد ويدرك حقيقة الأمور.

قلت: أسأل الله أن يقضي بذلك.

قال "حمزة" مغيرًا مجرى الحديث: أمازلت تعمل في تجارة الكتيبات؟

قلت: كلا.

فقال: وما عملك الآن.

قلت محاولاً صرف الحديث عن مسألة العمل: لعلي أجد عملاً بعد أمدٍ قريب، حدثني عن نفسك، متى خرجت من السجن؟

قال: خرجت منذ شهرين، وعندي لك عمل.

قلت متبسمًا: هاتِ ما عندك.

نظر "حمزة" إلى "وليد" نظرة ذات مغزى فقال "وليد": أنت تعلم أن أفغانستان دولة مسلمة تعرضت للاحتلال الروسي منذ ما يزيد على أربع سنوات.

صمت "وليد" هنيهة، كأنه ينتظر مني تعقيبًا، فأومأت برأسي مشجعًا إياه على الاسترسال، فقال: شرع إخواننا الأفغان في تنظيم صفوفهم لقتال الروس، كما فتحوا الباب للمسلمين جميعًا كي يشاركوهم الجهاد، وقد عزمت أنا و"حمزة" وبعض الإخوة على الذهاب إلى أفغانستان ونود أن تكون معنا.

فاجأني قول "وليد"، وتحيرت في الرد، وساد الصمت، فقطع "حمزة" الصمت سائلاً إياي: ماذا ترى؟

قلت: وكيف ستدخلون أفغانستان؟

ردَّ "وليد": سنذهب إلى باكستان وهناك سنجد من يتولى إرشادنا.

قلت: ومتى تنوون السفر؟

قال: ربما بعد ثلاثة أو أربعة أشهر.

قلت: ولكني فقير ولا أملك نفقات الجهاد.

قال: يكفي أن يكون معك ما يوصلك إلى باكستان وهناك سنجد من يتكفل بالنفقات.

تفكرت قليلاً ثم قلت: وما غاية الجهاد في أفغانستان؟

تبادل "وليد" النظرات مع "حمزة" كأنه لم يفهم سؤالي، فقال "حمزة": وهل للجهاد غايات متعددة؟

قلت: أعني ما هدف المقاتلين الأفغان؟

قال "وليد": هدفهم تحرير الأرض من الاحتلال الروسي وإقامة حكومة إسلامية.

قلت: التحرير هدف ظاهر، وإقامة حكومة إسلامية هدف باطن لا يعلمه إلا الله، فهل هناك شواهد تُرجِّح هذا الهدف؟

تبسَّم "حمزة" وقال: الآن فهمت مقصدك، أنت تخشى أن يجرنا الأفغان إلى قتال يهدفون من ورائه طرد الروس وإعلاء كلمتهم لا كلمة الله.

قلت: أحسنت الفهم.

قال: إذن فلتَذَر هذه الوساوس، فالمجاهدون الأفغان حريصون على الدين، ولا يُنتظر منهم إلا خيرًا.

صمت برهة، ثم قلت: ذرني أبحث الأمر مع نفسي، إذ لم أعتد العجلة في اتخاذ القرار.

قال "وليد": لا بأس، سننتظر ردك.

قلت موجهًا حديثي إلى "حمزة": انتظر زيارتي بعد عدة أيام لأخبرك بما عزمت عليه.

قال: سأنتظر.

ثم أردف: في هذا القتال لن تخشى استباحة دماء معصومة، ولن تحزن على طاقات مُهدرة.

قلت متبسمًا وقد فهمت ما يرمي إليه: أحسد قوة ذاكرتك.

ثم انصرفا بعد أن غرسا في نفسي بذرة أمل جديد.

لم يطل تفكيري قبل أن أقبل ما عرضه عليَّ "حمزة" و"وليد"، كأنما كنت أنتظر عرضًا كهذا لكي أترك أرض مصر التي رأيت فيها من الشر الكثير، فعليها مات أملي أن يكون لي الأسرة، ومات أملي أن تُقام دولة الخلافة الإسلامية، ومات أملي أن أكون إنسانًا ذا عزة وكرامة، فلماذا أبقي في أرض هي مقبرة الآمال؟

آلمتني تلك النظرة إلى أرض مصر، وشعرت أن فطرتي تأباها، ولكن هل يستطيع الإنسان أن يرى كل الأمور بعين الفطرة وحدها؟، إن أحداث الحياة قد تغطي أبصارنا بغشاوة تفرض تشويهًا على رؤيتنا لبعض الأمور، ولكننا لا ندرك ذلك التشويه، ونحسب أننا نرى الحقيقة.

تكرر لقائي "بوليد" و"حمزة"، وكان حديثهما عن أفغانستان يجعلني أرى القتال فيها بداية الطريق إلى دولة الخلافة الإسلامية التي طالما أقمتها في خيالي، وجعلت انتمائي خالصًا لها، وعسى أن تكون نواة تلك الدولة في أفغانستان، ومنها تمتد لتجمع المسلمين جميعًا.

بعت شقتي التي لا أملك غيرها لكي أحصل على نفقات السفر، وقد أتاني بيعها بمالٍ يفوق حاجة السفر، وكان ميقات الحج قد اقترب، فرأيت أن أحج قبل السفر إلى قتال لست أدري إن كنت سأحيا حتى أشهد نهايته أم لا.

فلما عدت من الحج، حصلت على تأشيرة الدخول إلى باكستان مع "حمزة" و"وليـــد" وأخ آخر يُدعي"أسامة ناصر"، وبدا الطريق ممهدًا أمامنا إلى أرض الجهاد والآمال.

الفصل الثالث

(١)

كنا في نهاية عام ١٩٨٤ عندما جلست مع رفاقي الثلاثة في طائرة متجهة من القاهرة إلى باكستان، أُذيع في الطائرة أمر بربط أحزمة المقاعد، وأقلعت الطائرة، نظرت من النافذة فرأيت أرجاء القاهرة تبتعد، وملأ نفسي شعور بانكسار قيود طوقتني دهرًا، كأني عصفور مكث في قفص سنوات طويلة ثم خرج منه إلى آفاق جديدة من الحرية، كثير من الناس يتغنون بأوطانهم قاصدين الدولة التي يحملون جنسيتها، وإذا هاجروا منها يأخذهم الشوق فيدفعهم إلى العودة إليها، أما أنا فقد رغبت في الهجرة من دولتي مع إخلاء قلبي من أي رابط بهذا الوطن، وكيف أرتبط بأرضٍ لم أرَ فيها إلا الظلم؟، كنت أرى آنذاك أن أسباب صلة الحب التي تربط الناس بدولهم أسباب يلزمها إعادة النظر والتقويم، فهي تشبه العصبية القبلية، ففي الحالين يُبنى الحب على صفات لا يراها الغريب عن الدولة أو القبيلة دافعًا إلى هذا الحب، مع اتفاق هذا الغريب مع المنتمين إلى الدولة أو القبيلة في العقيدة والفكر، وكنت أحسب الحب الحق لابد أن يُبنى على أسباب وصفات متفق عليها بين أصحاب العقيدة الواحدة، ولا مدخل إلى الخلاف بينهم في أنها المسبب للحب، ولعلي كنت مخطئًا فيما حسبته، إذ كان حسباني مبنيًا على رؤية عقلية مجردة، ولم أدرك حينذاك وجود دوافع خفية للحب لا تخضع للعقل.

نزلت بنا الطائرة في "إسلام أباد"، خرجنا من المطار فبدا لي عالم جديد غريب، وجوه الناس فيها سمة ما تميزهم لم أستطع تحديدها، أكثرهم يرتدون قميصًا إلى الركبة ومن تحته سروال إلى الكعبين، وفي الطرق تسير عربات تجرها البغال وسيارات فخمة، فاجتمع في مكان واحد رمزا الفقر والثراء، وصلتنا كلمات متناثرة من أحاديث الناس فلم نفهم منها شيئًا، كان البرد شديدًا والظلام قد غشي المدينة، وكان "وليد" هو قائدنا ومرشدنا فنظرت إليه وسألته: وماذا علينا الآن؟

قال: سنصلي ثم نذهب إلى مدينة بيشاور.

قلت متبسمًا: فلنتناول طعامًا قبل الصلاة، فإن بطني يشكو الخواء.

فتبسم بدوره وقال مخاطبًا "حمزة" و"أسامة": ما رأيكما؟

فوافقا، سرنا قليلاً ثم دخلنا مطعمًا متواضعًا، وجاء نادل المطعم فقال كلامًا لم نفهم من شيئًا.

تبادلنا النظرات، وقال "حمزة": يبدو أنه يسألنا عما نريده.

فحاول "أسامة" الحديث مع النادل باللغة العربية والإنجليزية، إلا أن النادل أخذ يردد كلمات غير مفهومة وقد بدا عليه الضجر، فقام "أسامة" وأشار إلى طعام على مائدة قريبة ونصب أربعة من أصابع يده، فأومأ النادل برأسه موافقًا.

جلس"أسامة" وقال بفخر: إن عجزت الألسن تكلمت الإشارة.

قلت: ماذا طلبت؟

قال: رأيت رجلاً يأكل بشهية بالغة فطلبت طعامًا كطعامه.

وجاء النادل حاملاً أربعة أطباق مع أرغفة الخبز، فلما تذوقت ما في الطبق شعرت بنار تلتهب في فمي، فاكتفيت بالخبز، وقلت "لأسامة": أرجو أن تعفينا من إشاراتك بعد اليوم فعواقبها قد تكون وخيمة.

وبعد أن صلينا العشاء في أحد المساجد، شرع "أسامة" يستوقف الناس ويسألهم عن موقف الحافلات المتجهة إلى بيشاور، كان يحاول السؤال باللغة العربية والإنجليزية، وبعد محاولات عديدة وجد من يدله على الموقف.

وصلنا بيشاور مع الفجر، وهي مدينة تقع قريبًا من الحدود الباكستانية الأفغانية، فأجرى "وليد" اتصالاً هاتفيًا، وجلسنا ننتظر، وبعد ساعة جاء رجل صافح "وليد" بحرارة ورحَّب بنا، وعلمت من لهجته أنه مصري، ثم صحبنا في سيارة إلى مخيم في طرف المدينة، دخلنا المخيم، وقام الرجل بتعريفنا إلى شيخ باكستاني، كان هذا الشيخ هو القائم على أمر المخيم، وكان يتحدث اللغة العربية بدرجة ليست جيدة وإن كانت مقبولة، فأرشدنا إلى المكان الذي سنقيم فيه وكان خيمة كبيرة يشاركنا فيها بعض

العرب من السعودية والجزائر واليمن، فلما رأونا بدت الفرحة على وجوههم، وحرصوا على التعرُّف إلينا، وفاض حديثنا بالألفة، فشعرت أني أقيم وسط أهلي.

عرفت أن المخيم خاص بالمتطوعين للقتال القادمين من خارج باكستان، ولم يكن هذا المخيم مأواهم الوحيد، إذ تفرقوا على مخيمات وبيوت ضيافة تشبه الفنادق المتواضعة، وقد كان أكثرهم من العرب والباقون من آسيا وأوربا، وبعض المقيمين في المخيم كانوا قد خرجوا إلى ساحات القتال في أفغانستان ثم عادوا، وبعضهم لا يزالون في مرحلة التدريب وآخرون انتهى تدريبهم وينتظرون الخروج.

كان التدريب يبدأ بعد صلاة الظهر في معسكر قريب من المخيم، وكان يقوم على أربعة أسس، الأول هو الإعداد البدني وتقوية الأجسام عن طريق العَدْو والتمارين الرياضية، والثاني هو الإعداد النفسي عن طريق بث حب الجهاد في النفوس والترغيب فيه، والثالث هو تعليم مبادئ الكر والفر والاختباء وتنسيق الانتشار في المناطق الجبلية والمناطق المكشوفة وعلاج الإصابات، والأخير هو التدريب العملي على استخدام الأسلحة وفكِّها، وإعادة تجميعها، وتنظيفها كي لا تتعرض للأعطال، وكانت الأسلحة المتاحة من النوع المحمول كرشاش الكلاشنكوف، ومدافع الهاون، ومدافع الآربيجي المضادة للدبابات، ورشاش البيكا القوي الذي يصل مداه لأكثر من كيلومتر.

كنت أشعر بالتعب والإعياء في الأيام الأولى من التدريب، وشعرت أنه أقسى مما ينبغي أن يكون، فلما اجتمعت مع رفاقي مساءً في الخيمة عزمت على مفاتحتهم في الأمر، فقلت: أشعر بالجَهْد الشديد، ولن أستطيع المواظبة على التدريب إن بقي على تلك الصورة الشاقة.

فقال"حمزة": ما تشعر به لا غرابة فيه، لأن جسدك في بداية الانتقال من الكسل إلى النشاط، خُذ يومًا أو يومين للراحة كلما اشتد بك التعب، ومع الوقت سيعتاد جسدك الجُهْد الشاق ولن تشعر بمثل هذا التعب.

عزمت على ترك التدريب يومين كما نصحني "حمزة"، ولم يكن في التدريب إكراه، وكان يُؤذن لأي متدرب بتركه متى شاء، وتجولت في أرجاء المخيم بعد أن ذهب أكثر المقيمين فيه إلى التدريب ولم يبق منهم إلا عدد قليل، وأثناء سيري لفت نظري رجل

يجلس وحيدًا، ويخفي وجهه بيديه، فألقيت عليه السلام، فرفع وجهه ونظر إليَّ بعيـــون حمراء فيها أثر دموع، ورد السلام.

كنت أرى المقيمين في المخيم تبدو عليهم السعادة في كل وقت، فبدا هذا الرجل شاذًا بينهم، فمددت يدي لأصافحه وقلت: أنا أخوك "خالد" من مصر.

فتبسم وقال: وأنا "عدنان" من بلاد الحرمين.

فاتخذت مجلسًا بجواره وسألته: لماذا لم تخرج إلى التدريب؟

قال: لن أحضر تدريبًا بعد اليوم.

أدهشني قوله، فقلت: يبدو أنك أصبحت خبيرًا في القتال، فـآثرت تـــرك التـــدريب للمبتدئين مثلي.

قال: ليس الأمر كما تظن.

ثم ساد الصمت برهة، فقلت: ألا تدرأ ظني بخبر يقين؟

قال: سأعود إلى السعودية بعد أيام إن شاء الله، ولا أنوي الرجوع إلى باكستان.

قلت: ألم تأت هنا للجهاد؟

قال: بلى.

قلت: هل طرأ ما يحملك على العودة؟

قال: نعم.

ساد الصمت مرة أخرى، فقلت: هل تكره أن أسألك عن سبب عزمك على العـــودة إلى بلادك؟

قال: لا، ولكنها قصة مؤلمة.

قلت: لا بأس، فالآلام كانت ترافقني دائمًا في مصر حتى صارت كقريني.

فتنهد "عدنان" وشرد ببصره كأنما يحاول التذكر، ثم قال: قدمت إلى باكستان الصيف الماضي، ومكثت في التدريب شهرًا مع عشرات من إخواني العرب المتطوعين للجهاد، وقد تعرَّفت إلى هؤلاء الإخوة وربطتني بهم صلة وثيقة، فجمعنا حب الجهاد والرغبة في نصر هذا الدين، وسقطت بيننا تلك الحواجز الوهمية التي تفرق بين المسلمين أصحاب

الجنسيات المختلفة، فتلك الحواجز التي تصنعها الحكومات تفتن الشعوب وتغرَّها، أما هنا فقد تهاوى ذلك الغُرور وصرنا كالجسد الواحد.

سكت "عدنان" هنيهة، ونظر إليَّ فرأى على وجهي دلائل الاهتمام والشغف، فاسترسل قائلاً: كما تعلم فالحرب في أفغانستان تدور بين طرفين، أولهما هو الجيش الروسي والحكومة الشيوعية الملحدة الموالية له، والطرف الآخر هو الأحزاب الأفغانية المسلمة، وهي على حد علمي سبعة أحزاب تتباين في قوتها وعدد أتباعها ومناطق نفوذها، وكل حزب يقاتل مستقلاً عن الأحزاب الأخرى.

سكت "عدنان"، وكان هذا أول علمي بتفرق المجاهدين الأفغان بين تلك الأحزاب، فقلت بصوت لا يَخفَى ما فيه من دهشة: ولماذا لم توحِّد هذه الفِرق أو الأحزاب صفوفها في القتال؟

قال: العلاقات بين هذه الأحزاب مُعقدة، ولم أستطع فهمها، إذ يدفعهم إلى التفرق خلافات عِرقية وقبلية قديمة يتوارثها الأبناء عن آبائهم، فضلاً عن أطماع قادة تلك الأحزاب في السيطرة وبسط أماكن نفوذهم.

كانت كلماته تشبه الصدمة، فقلت: هذا لا يُبشِّر بخير، أليسوا جميعًا من المسلمين؟

قال: بلى.

قلت: ولماذا لا تتوارى تلك الخلافات خلف رابط الإسلام؟

قال: عجزت أن أقف على إجابة شافية لهذا السؤال، لعله الجهل أو التعصب الجاهلي أو أطماع القادة، والله أعلم.

ثم استطرد قائلاً: كان يأتينا في بيشاور جماعات لا تقل الجماعة الواحدة عن مائة من المقاتلين الأفغان التابعين لأحد الأحزاب، وكان يتم تزويدهم بالأسلحة والذخائر ويعودون إلى جبهات الحزب في أفغانستان لمواصلة القتال، وقد تم توزيعنا على هذه الجماعات لندخل معهم أفغانستان ونشارك أحزابهم القتال، ولم يُؤثَر أحد الأحزاب الأفغانية على الآخر في عدد الملتحقين به من العرب، لكي تعلم جميع الأحزاب أننا على الحياد ولا نُفضِّل أحد الأحزاب على الآخر، ولا صلة لنا بتلك الخلافات القائمة بينهم.

تنهد "عدنان" بحسرة ثم قال: دخلت وثلاثة إخوة عرب أفغانستان مع جماعة تتبع الجمعية الإسلامية...

فقاطعته قائلاً: وما الجمعية الإسلامية؟

قال: هي أحد الأحزاب الأفغانية السبعة، وهذا الحزب يفتح جبهات قتال في أماكن متفرقة من أفغانستان موزعة على مناطق نفوذه، وقد صاحبتنا الجماعة الأفغانية إلى إحدى جبهات القتال التابعة للحزب في شمال كابول العاصمة، وقد قطعنا الطريق سيرًا على الأقدام ولم نصل جبهة القتال إلا بعد شهر من المسير وسط الجبال، وتعرضنا لقصف الطائرات الروسية عدة مرات وقد كنا قد تدربنا على مواجهة القصف بالتفرق على مساحة واسعة والاختباء خلف الصخور وداخل الكهوف، وكنا نضطر إلى تغيير اتجاهنا صوب الشمال، فنسير إلى الشرق أو الغرب يومًا أو يومين ثم نواصل المسير إلى الشمال، فلما سألت أحد الأفغان عن سبب تغيير اتجاهنا، وكان يعرف قليلاً من العربية، فهمت منه بمشقة أننا نضطر إلى تجنُّب المرور في مناطق نفوذ الأحزاب الأخرى، وهنا أدركت أن الخلاف بين تلك الأحزاب أكبر مما تخيلته، وكنا قد أُمرنا قبل مغادرة باكستان ألا نتدخل في الخلافات بين الأفغان أو نبدي فيها رأيًا، فمهمتنا هي قتال الروس والحكومة الشيوعية الموالية لهم لتحرير الأرض من عقيدة الإلحاد.

سكت "عدنان" قليلاً ليلتقط أنفاسه ثم أكمل قائلاً: مكثنا في جبهة القتال عدة أيام ثم أخبرنا أمير الجبهة أننا سنشن هجومًا صوب الشرق لطرد بعض (قوَّات) الجيش الحكومية من أماكن رباطها، فشعرنا نحن العرب بسعادة لا توصف وارتفعت أصواتنا بالتكبير والتهليل، ومن حولنا الأفغان ينظرون إلينا بدهشة، لقد حان وقت القتال الذي هاجرنا لأجله، فلم لا تغشانا السعادة؟، بدأ خط جبهتنا يتقدم، مع قصف مُكثَّف بالصواريخ وقذائف الهاون، وبعد دقائق رد علينا الجانب الآخر واستمر تبادل القصف ونحن نتقدم ببطء، وبعد يومين توقفت القوات الحكومية تمامًا عن القصف، فعلمنا أنها فرَّت أو تعد كمينًا، فتقدمنا بحذر، وعندما وصلنا إلى خط قتالهم ورأينا العتاد والأسلحة التي تركوها مع بعض جثثهم علمنا أنهم فرُّوا، فشرعنا نجمع الغنائم وندفن القتلى، ولم يُقتل منا سوى عدة مقاتلين أفغان وسلمنا نحن الأربعة العرب بفضل الله،

وفي اليوم التالي فاجأنا قصف بالصواريخ من الخلف، وكان ذلك أمرًا غـير مُتوقَّـع، وأصابتني دهشة بالغة، فالظاهر أن المناطق الخلفية أصبحت تحت سيطرتنا فكيف يأتينا هجوم منها؟، حولنا نيران أسلحتنا إلى الخلف واستمر تبادل القصف ساعات وكنت أظن مع إخواني العرب أن القوات الحكومية استطاعت التسلل عبر خطوطنا، ومضى فريق منا راجعًا صوب المهاجمين الجدد وكنت من هذا الفريق، ولم يدم القتال طويلاً إذ استخدمنا مدافع البيكا في صد الهجوم وقتلنا عددًا كبيرًا من المهاجمين، وفرَّ الباقون، فلما وصلنا إلى مكان هجومهم وسرنا بين جثث قتلاهم، فوجئت برؤية جثة أحد الإخوة العرب الذين تدربوا معي في بيشاور، كانت المفاجأة كالصاعقة، ولم أصدق عيني، ثم أخذت أصيح كالمجنون: مَن هؤلاء الذين هاجمونا؟ ولم يرد أحد فكل الفريق الذي رجع معي كان يجهل العربية، ثم علمت بعد ذلك أن هؤلاء المهاجمين كانوا ينتمون إلى أحد الأحزاب الأفغانية، وقد هاجمونا عندما دخلنا مناطق نفوذهم أثناء مطاردتنا للقوات الحكومية، وقد قُتل هذا الأخ بأيدينا أثناء اشتباكنا معهم، وفي ذلك اليوم قررت ترك القتال والعودة إلى بلدي، فهذا الجهاد ليس غايته جَعْل كلمة الله هي العليا، بل هو قتال أحزاب متناحرة، تريد طرد المحتل من أجل الاستئثار بالسلطة والنفوذ، ولا تتورع عن قتال بعضها في سبيل أطماعها، وقد جئت سائلاً الله أجر الجهاد في سبيله، وها أنا سأعود ويُثقل كاهلي ما لم أُحْصِ عدده من كفَّارات القتل الخطأ.

سكت "عدنان" وفاضت عيناه من الدمع، فلم أجد إلا أن أعزيه، ثم تركته مع أوجاع قلبه، بعد أن ألقى في رُوعي مِعْوَلاً يوشك أن يهدم الأمل الذي هاجرت لأجله، انتظرت عودة رفاقي من التدريب، ولما أقلبوا عليَّ كانت قصة "عدنان" قد تركت أثرها على وجهي فذهبت بشاشته، فعلموا أن أمرًا قد حدث قبل أن أتحدث، فسألني "وليد": أراك عابسًا، ماذا حدث؟

فقلت مخاطبًا "حمزة": ألم تخبرني في مصر أن المجاهدين الأفغان حريصون على الدين ولا يُنتظر منهم إلا خيرًا؟

قال وهو يبتسم ابتسامة توحي بالدهشة: بلى.

قلت محاولاً كظم غيظي: ألم تسمع بخلافات فِرق المجاهدين الأفغان؟

قال: بلى، وهي خلافات يسيرة في طرائق الجهاد.

قلت: أهي طرائق الجهاد وحدها ولا مزيد على ذلك؟

قال: نعم، هل علمت شيئًا غير ذلك؟

قلت: فلتعلم أن كل فرقة من هذه الفِرق الأفغانية المجاهدة تستأثر بمناطق من أرض أفغانستان، ولا تأذن لغيرها من الفرق بدخول المناطق التي تسيطر عليها، وأنها قد تقتتل فيما بينها دفاعًا عن مناطق نفوذها.

قال: لم أعلم بذلك قط.

قلت بصوت عالٍ: ولماذا لم تتحقق من الأمر قبل تدعوني إلى الجهاد؟

قال: لقد أخبرتك بما سمعته.

قلت بحدة: كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع.

قال بحدة أشد: قل ذلك لنفسك، هل تيقنت من صحة ما تزعمه الآن؟

صحت غاضبًا: اسأل الذين عادوا من أفغانستان.

وكان قد تجمَّع حولنا عدد كبير من المقيمين في المخيم بعد أن ارتفعت أصواتنا على غير ما جرت العادة، فقال أحد الواقفين: ما يقوله الأخ "خالد" صحيح.

وقال آخر: لقد جئنا لإغاثة إخواننا المسلمين من أهل أفغانستان، وخلافات الأحزاب الأفغانية لا تعنينا.

فقلت موجهًا حديثي إلى هذا الأخير: هل جئنا للإغاثة دون قتال؟

قال: الأصل هو الإغاثة وإيصال المساعدات إلى المستضعفين، ومن أراد القتال فله ما أراد.

وتدخل أحد الواقفين فقال: بل الأصل هو قتال الروس وما جئنا إلا للجهاد، أما تقديم المساعدات فهو مهمة منظمات الإغاثة.

ثم تكلم عدد كبير من الواقفين، فضج المكان بأصوات متداخلة، واحتدم الجدال في الأَوْلى بالتقديم، أهو القتال أم إغاثة المستضعفين؟، فانسحبت في هدوء وقبعت في خيمتي.

مرت أيام لم أبرح فيها المخيم، فانصرفت عن التدريب، وعاودتني أحزان انهيار الآمال، وكنت أحسب أني تركت هذه الأحزان في مصر فإذا بها تلحق بي في باكستان كريحٍ تذروا آمالاً كالهشيم، وشعرت أن الأرض تضيق عليَّ بما رحبت، ولم أدرِ ما يتعين عليَّ فعله، فكل الخيارات أمامي كانت مُرَّة، وكنت أوشك على الانهيار أمام هجمات اليأس العاتية، وذات ليلة أقبل عليَّ رفاقي الثلاثة الذين هاجرت معهم من مصر، وجلسوا حولي كأنما ينوون أمرًا، وبدأ "حمزة" الحديث فقال بصوت يشوبه المودة: لِمَ نراك اعتزلت إخوانك؟

قلت بصوت لم أستطع إخفاء ما فيه من حزن: أخذتني حسرةُ عملٍ صار كرمادٍ اشتدت به الريح في يوم عاصف.

قال "وليد": أيّ عمل؟

قلت: هاجرت لأجل القتال في سبيل الله فإذا به في سبيل أطماع الفِرق الأفغانية.

قال "حمزة": وما أدراك بأطماعهم، هل اطلعت على ما في صدورهم؟

قلت: أخبرني ماذا يحملهم على التنازع وعدم الاعتصام بحبل الله غير الأطماع؟

فقال "وليد": لقد ناقشت هذه المسألة مع بعض العارفين، فأخبروني أن كل فرقة أفغانية لها مناطقها وقادتها الذين يستطيعون توجيه قبائلهم إلى الجهاد، فهذه القبائل لا تقبل قيادة من خارجها.

قلت: ذلك يثبت أن للقبائل الأفغانية عصبية جاهلية، وإني أكاد أرى القادة الأفغان كإخوانهم قادة الدول العربية، فالقادة الأفغان يُسخِّرون العصبية القبلية والعرقية للاحتفاظ بمناطق نفوذهم، والقادة العرب يُسخِّرون العصبية الوطنية لنفس الغاية، والمحصلة مزيد من التفرق والضعف، وسيتكالب علينا أوباش الأمم ليأكلوا من القصعة الإسلامية دون حساب، ولن نصل أبدًا إلى دولة خلافة تجمع المسلمين إلا أن يشاء الله.

ساد صمت قصير، ثم قال "أسامة": القادة الأفغان يختلفون عن القادة العرب، فالأفغان يتحدون في الغاية، وهي تحرير أفغانستان من الاحتلال الروسي وإسقاط الحكومة الشيوعية الملحدة من أجل إقامة حكم إسلامي، وعند الوصول إلى هذه الغاية ستذوب الخلافات بينهم إن شاء الله.

قلت: إن كان القادة الأفغان لم يتورعوا عن التفرق والاقتتال فيما بينهم طمعًا وكبرًا وهم يواجهون عدوًا واحدًا يستنفد قوهم، فأيُّ الوجهين أقرب إلى التَّصور إن قُدِّر لهم النصر، أن يتحدوا أم يوجهوا كل قوهم إلى قتال بعضهم من أجل ضم المناطق المفتوحة إلى سلطاهم؟

قال "أسامة": لا تكن مثبطًا، وانظر إلى سمو الغاية وهي الحكم الإسلامي.

قلت: الحكم الإسلامي لن يقوم على قاعدة من التفرق والتنازع، بل إن من سنن الله أن يؤدي التنازع إلى الفشل وذهاب الريح، والإشكال هنا أن نزاع الأفغان وعدم اعتصامهم بحبل الله يُسقط زعمهم أنهم يجاهدون في سبيل الله، ولن أرضى بالقتال في صفوفهم.

قال "وليد": وماذا عن المستضعفين الأفغان من الرجال والنساء والولدان؟، ألا ننصرهم وقد استنصرونا؟ أنتركهم فريسة لحكم محتل روسي ملحد ليقتل ويسبي من يشاء منهم ؟ مهما بلغت مساوئ أحزاب الأفغان فهم خيرٌ من أهل الكفر والإلحاد.

نظرت إلى "وليد" ودفعني قوله إلى تذكُّر مشهد مقتل "أحمد عاطف" بين يدي أمه، وتساءلت في نفسي: كم من أم أفغانية مسلمة قُتل ابنها بين يديها؟، فقلت: فلننصر الأفغان دون الانضواء تحت راية الأحزاب الأفغانية.

قال "حمزة": أتحسبنا نعلم حدود مناطق الصراع وضوابط القتال التي تفرضها طبيعة الأراضي الأفغانية؟، لن نجد مُوجِّهًا إلى القتال غير هذه الأحزاب الأفغانية.

قلت: قد تُوجِّهنا هذه الأحزاب إلى قتال بعضها ونحن لا ندري.

قال "أسامة": كأنك تغلق كل الأبواب.

شعرت بالحيرة، وتفكرت قليلاً ثم قلت: لقد تكلم بعض الإخوة عن أعمال إغاثة دون قتال، فماذا عنها؟

قال "وليد": هناك اللاجئون الأفغان في مخيمات بيشاور وهؤلاء يلزمهم التعليم والدعوة والغذاء والرعاية الصحية، وهناك المستضعفون في القرى الأفغانية ويتم إرسال قوافل إليهم محملة بمواد الإغاثة كالأغذية والأدوية والبطاطين والثياب.

قلت: وهل الطريق ممهد إلى تلك القرى؟

قال"وليد": دور المتطوعين هو حماية القافلة والدفاع عنها إذا تعرضت لهجـــوم حـــتى تصل إلى هؤلاء المستضعفين.

قلت: أعتقد أن هذا العمل لا بأس به.

قال"حمزة": إذن يلزمك الإعداد حتى تستطيع حماية القوافل، استعد من الغد للعودة إلى التدريب فإننا نفتقدك.

قلت متبسمًا: إن شاء الله.

عدت إلى التدريب على مضض، ووجدت نفسي أَرْضَى بالذي هو أدنى من الذي هـــو خير، فبعد أن هاجرت ساعيًا إلى الجهاد في سبيل إقامة دولة قد تكون نـــواة الخلافـــة الإسلامية الجامعة للمسلمين، وجدت كل غايتي لا تتعدى تقديم العون إلى المستضعفين، وكان عزائي أن تعرَّفت إلى الكثير من العرب المسلمين المهاجرين مثلي، فكنا كأســـرة واحدة، نتسابق لخدمة بعضنا، وكانت أماكن إقامتنا تشبه دولـــة إســـلامية صـــغيرة، ولكنها لم تسلم من الانقسام، إذ انقسمنا إلى فريقين، أما الفريق الأول فقـــد رأى أن يشارك الأحزاب الأفغانية في القتال، وأما الفريق الآخر فكان مثلـــي يـــرى اعتـــزال القتال، لأن القتال مع أحد الأحزاب الأفغانية سيجعل المقاتل العربي يتـــأثر بأفكـــاره وخلافاته مع الأحزاب الأخرى، فيؤدي ذلك إلى خلاف بين المقاتلين العرب، وكـــان هذا الفريق يرى قصر عمل العرب على الإغاثة والدعوة، وقد اشتهر هذا الانقسام في صفوف العرب، ولكنهم جعلوه نوعًا من التكامل أو اختلاف التنوع، وكانوا مـــتفقين ومتحابين ولا يظهر الخلاف في أحاديثهم، ولكني كنت أرى انقسامهم يُنذر بتصـــدع صفهم الواحد، فمحل الخلاف ليس هينًا.

وبعد شهرين من التدريب المنتظم شعرت أني أصبحت إنسانًا آخر، إذ زادت خـــبرتي العسكرية وقوتي البدنية، وشعرت بنشاط لم أشعر به قط، وجذبني حـــنين إلى ترقـــب دخول أرض أفغانستان التي طالما سمعت بها وبجمال جبالها وخشونة رجالها.

***

مع قدوم الربيع وبداية ذوبان الجليد في أفغانستان، كانت تُرسل القوافل من بيشـــاور إلى شتى بقاع أفغانستان، وكانت القافلة تتكون من بعض المرشدين والمقاتلين الأفغـــان

ومترجم وبعض المتطوعين العرب وعشرات البغال المحملة بالأسلحة ومـواد الإغاثـة، وكانت الحكومة الباكستانية تمد القوافل بالأسلحة، أمـا مـواد الإغاثـة كالأغذيـة والأدوية والثياب فكان مصدرها تبرعات المسلمين ومؤسسات إغاثة دولية اتخذت من بيشاور مقرًا لها، ولكن هذه المؤسسات أعرضت عن الدخول إلى أفغانستان وتركـت لنا مهمة إيصال مواد الإغاثة إلى الولايات الأفغانية.

شعرت بغضاضة عندما علمت أن القافلة لابد أن تحمل الأسلحة إلى إحدى جبـهات القتال مع مواد الإغاثة، إذ كنت أخشى أن يصل السلاح إلى يد فتقتل بـه مسـلمًا، ولكن لم يكن أمامنا محيص من ذلك، فالقوافل كثيرة، وتحتاج عشرات المقاتلين لحمايتها من اللصوص المحاربين وقطاع الطرق والقبائل الموالية للحكومة الشيوعية فضلا عـن الروس والقوات الحكومية، وهي مهمة شاقة لا نستطيع الوفاء بها كمتطوعين، فكـان يقوم بحراسة القافلة جماعة من المقاتلين التابعين لأحد الأحزاب الأفغانية مقابل حصول جبهتهم المقاتلة على الأسلحة وبعض مواد الإغاثة، وتُوزَّع باقي مواد الإغاثـة علـى القرى المتضررة من الحرب، وكانت مهمتنا نحن العرب المشـاركة في حمايـة القافلـة بالإضافة إلى مهمة رقابية لئلا يحدث غبنًا في توزيع مواد الإغاثة، وكنت أسمـع مـن العائدين من أفغانستان قصصًا عجيبة عن خلافات بين الأفغان في توزيع مواد الإغاثـة والأسلحة تصل إلى الخصومة بين أمراء الجبهات المنتمية إلى حزب واحد، فكأن النزاع في كل الأمور هو قدر الأفغان، فازددت يقينًا أني كنت مصيبًا عندما قررت اعتـزال هذه الفرق الأفغانية كلها.

كان يُترك لنا اختيار القافلة التي نريد مصاحبتها دون إكراه، وقد وقع اختياري علـى قافلة متجهة إلى "مزار الشريف" في شمال أفغانستان وحرصـت علـى أن يصـاحبني "حمزة" و"وليد"، أما "أسامة" فقد دفعته حماسة الشباب إلى الفريق الآخر الذي اختـار القتال.

تحركت قافلتنا صوب حدود أفغانستان، وكانت مكونة من أربعين بغلاً محملة بالأسلحة والذخائر والأغذية والأحذية والملابس والبطاطين والأدوية، وأكثر من خمسين مقـاتلا أفغانيًا مسلحًا ومترجم باكستاني وخمسة من المتطوعين العرب، وهـم أنـا و"حمـزة"

و"وليد" و"أبو يزيد الجزائري" و"أبو رشيد المكي" وتسلم كل منا رشاش كلاشنكوف وثلاث خزائن للطلقات.

لم نعلم أننا في أفغانستان إلا عندما أخبرنا المترجم بذلك، إذ كانت الحدود مفتوحة، فسرنا في أرض الله الواسعة التي لم تمتد إليها الحواجز والمتاريس بأيدي أهل التقسيم المُختلق والوطنية الزائفة، وبعد أيام قليلة دخلنا المناطق الجبلية، كانت الجبال الشامخة تحف بها الهيبة، ومن وسطها ينساب ماء غير آسن في جداول تعانقها الشمس فتبدو للناظرين خيوطًا من الحرير اللامع، ومن حولها نبات قليل يخرج من بين الصخور فتعبث به الرياح ليتراقص مع شدو خرير المياه، أسكرني الإبهار وأنا أُوَلي وجهي شطر جبال بعيدة ترسو كماردٍ عتيد، وتخيلتها جنودًا سخرها الله لنا لتحجب عنا السوء.

كان البرد شديدًا، وآثار الثلوج لا تزال على الجبال، وكنت مع رفاقي العرب ننصب الخيام فنبيت فيها إذا حلَّ الليل، بينما يبيت رفاقنا الأفغان في العراء أو في الكهوف الجبلية، وإذا دخل وقت الصلاة رفع "حمزة" صوته بالأذان، وصلى "أبو رشيد المكي" بنا إمامًا، وكان الأفغان لا يرفعون أصواتهم بالتأمين مع الإمام عقب قراءته للفاتحة، وأثار انتباهي تهامس الأفغان بحديث غامض عقب الصلاة في اليوم الأول، كأن في صلاتنا شيئًا لم يعتادوه، طلبت إلى المترجم الباكستاني أن يأمرهم بالجهر بالتأمين إقتداءً بالسنة ففعل ولم يأتمروا، إذ كان سلطان عادتهم أقوى من تطيح به كلمات مترجم ضعيف.

دخلنا قرية بعد أسبوع من المسير الهادئ، فاتخذنا فيها مستقرًا للراحة إلى حين، تجولت في القرية فشعرت أني عدت إلى حقبة زمنية مجهولة في الماضي السحيق، فالقرية تخلو من الكهرباء، وأهلها يحصلون على المياه من نهر ضيق غير عميق يمر وسط القرية، البيوت تناثرت دون ضوابط أو نظام، شعور الرجال ولحاهم وشواربهم طويلة غير مهذبة كأنهم من أهل العصر الجاهلي، أكثرهم يحملون في ذهابهم وإيابهم بنادق قديمة لم أرها من قبل، كنت أحمل سلاحي الكلاشنكوف الحديث الذي تسلمته قبل الرحيل، فكانوا ينظرون إليَّ بحسد قرأته في عيونهم، خُيِّل إليَّ أن الحسد سينقلب رغبة في التملك، فقبضت على سلاحي بقوة، وتلفَّتُ حولي بحذر، اقترب مني بعض الأطفال، كانوا

يتأملونني بفضول كأنهم يرون رجلاً هبط من السماء، وكانوا يبتسمون ويتهامسون، فابتسمت ومددت يدي لأصافحهم، فتسابقوا لمصافحتي، وهنا تذكرت ابني "غريب" الذي كان يفر من مصافحتي، فمحوت هذه الذكرى من عقلي واستحضرت صورته وهو رضيع بريء البسمة يعبث في لحيتي.

غادرنا القرية بعد يوم من الراحة، وبعد مسيرة يوم آخر اعترض طريق قافلتنا جماعة مسلحة ظهرت أمامنا بغتة من خلف أحد الجبال، دار حديث بين رفاقنا الأفغان وأفراد هذه الجماعة، ثم تحوَّل الحديث إلى ما يشبه الجدال، وعلت الأصوات ولوَّحت الأيدي بالتهديد، وكنت كالأصم لا أفقه للمتكلمين حديثًا، وكان "حمزة" يقف بجواري، فقلت له: فيم يتجادل هؤلاء؟

قال: لست أدري، فلنسأل المترجم.

توجهنا إلى المترجم، فكان يستمع إلى الجدال ويبدو على وجهه القلق، فلما سألناه عما يجري أشار لنا بالصمت حتى ينتهي الجدال، وبعد دقائق تفرَّق المتجادلون دون توافق، إذ بدا السخط والوجوم على وجوههم، وتوقفت القافلة عن المسير ودار حوار حاد بين رفاقنا الأفغان، فأقبلتُ مع رفاقي العرب على المترجم نسأله البيان، فقال: هؤلاء المعترضون ينتسبون إلى إحدى القبائل ويزعمون أن هذه المنطقة ملكهم، وإن أردنا أن نسلكها فعلينا إعطاء أجر المرور.

قلت: وماذا سيفعلون إن لم نعطهم ذلك الأجر؟

قال: لن يأذنوا لنا بالمرور، ولو أدى الأمر إلى القتال.

قلت: وهل طلبوا أجرًا كبيرًا؟

قال المترجم: عُشر أحمال البغال.

قال "أبو رشيد": وكيف رد رفاقنا عليهم؟

قال المترجم: قالوا إنهم يسلكون ذلك الطريق منذ سنوات دون أن يعترضهم أحد، ورفضوا الانقياد لرغبة المعترضين.

قال "حمزة": وماذا سيفعلون؟

قال المترجم: لست أدري، فهم يناقشون الأمر بينهم الآن.

مرت دقائق ثقيلة، فقال "أبو يزيد": أرى أن نقاتل المعترضين فنحن نتفوَّق في السلاح.
فزجره "وليد" قائلاً: صه، أتريد جرّنا إلى مستنقع التراعات الأفغانية؟
قلت: فلننتظر حتى نرى علام سيتفقون.

ولم يطل انتظارنا، إذ قرر رفاقنا الأفغان السير في طريق آخر، وكنا نعتمد على الشمس في تحديد اتجاه سيرنا، وتواصل المسير بين الجبال وبعد يومين وصلنا واديًا، وبدا أننا نسير في طريق لم يسلكه رفاقنا الأفغان من قبل، إذ كانوا يتوقفون كل عدة ساعات ويتحيرون في اختيار الوجهة، ولم يكن معهم خرائط للمنطقة فزاد ذلك من حيرتهم.

كانت البغال تسير خلف بعضها ويسوقها الأفغان، بينما كنت مع رفاقي العرب نسير خلف القافلة، وفجأة دوى انفجار في مقدمة القافلة، فكان أول ما تبادر إلى ذهني هو انفجار الذخيرة المحمَّلة على أحد البغال، هرعنا إلى المقدمة فهالنا ما رأيناه، كان أحد الأفغان ممددًا على الأرض والدماء تترف بغزارة من شقه الأيمن بعد أن انفجر فيه لغم أرضي، وكان يشهق بقوة كأن روحه توشك أن تفارق جسده وهو يحاول منعها، كانت ساقه اليمنى قد اختفت كأنها بُترت من عند الركبة، ومال عليه أحد رفاقه وربط حبل على فخذه أعلى مكان البتر لإضعاف تدفق الدم، ثم أتي بمادة متفجرة وفجَّرها عند مكان البتر لوقف نزيف الدم، ثم قام بتضميد جراحه، بينما سكن المُصاب تمامًا كأنه مات أو فقد وعيه، وبجواره سقط البغل الذي كان يسوقه وقد تحطمت ساقاه الأماميتان، وظهر لحم رقبته، وتمزقت بطنه فبرزت منها أحشاؤه، وسقطت الأسلحة والذخائر التي كان يحملها، كان البغل صامتًا وهو يفارق الحياة، وكان يُسبل جفنيه ثم يرفعهما قليلاً كأنه يلقي نظرة الوداع الأخيرة على دنيا أدَّى فيها عمله على الوجه الأكمل، فكان خيرًا من أناس خانوا أماناتهم التي حملوها، فباءوا بظلم وجهل وكانوا أضل سبيلاً من الأنعام.

ظهر جليًا أننا نزلنا واديًا فيه حقل ألغام، فاضطررنا إلى العودة إلى مدخل الوادي، ومكثنا هناك نتفكر فيما يتعين علينا فعله، وفي صباح اليوم التالي كان الأفغاني المصاب يكابد الحمى وراح يهذي بكلمات، ويرمقنا بنظرات استنجاد، وكنا كالأسرى عند مدخل وادٍ لا نعلم مكانه بدقة، وليس فينا طبيب عليم بالدواء اللازم للمصاب من

الأدوية التي تحملها البغال، فلم يجد الأفغاني المصاب منا إلا الرقية والـدعاء وبعض مسكنات الألم.

جلست بين رفاقي العرب ننتظر قرار الأفغان الذين لم يبدُ عليهم أي قلق كأنما يمرون بحدث اعتادوه، وكان أحدهم يتبادل الضحكات مع زميله، ساءني سعادته، وكان المترجم يجلس معنا فسألته بضيق: كيف يضحك هذا الرجل وصاحبه يُشرف على الموت؟

فتبسم وقال: لقد اعتاد الأفغان في حروبهم الطويلة رؤية القتلى والجرحى، حتى صار مشهد دماء الرجال عندهم كمشهد دماء الأضاحي يوم النحر، فلا تدهش منهم وأنت في الطريق لتصبح مثلهم.

قلت: لا أحسب أني سأصبح مثلهم أبدًا.

قال: هذا ما يظنه كل من سمع بالحروب ولم يدخل غمارها، الحروب تجعلك ترى ما لا يراه القاعدون، وتدرك ما لا يدركونه، الحروب تجعلك تعلم أن الموت أقرب إليك من حبل الوريد، وأنك سائر إليه كالأعمى يُدفع إكراهًا في طريق ينتهي بهاوية سحيقة، فهو لا يرى نهاية طريقه ولا يستطيع إيقاف سيره، فعلم أنه هالك لا محالة في ميقات مجهول، حتى إذا سلَّم بهذه الحقيقة تراه لا يجزع أو يضطرب لرؤية الموت يقترب منه أو من أحد رفاقه، أما القاعد فيغرُّه ذلك الأمن الزائف الذي يحيط به ويحسب أن الناس تمضي إلى حياة طويلة ولن يدركها الموت إلا بعد عمر مديد، فيصيبه هم وكرب إذا رأى موتًا يُكدِّر صَفْوَ ظنِّه.

قلت: كأنك فيلسوف ولست مترجمًا.

قال: لقد درست الفلسفة في باكستان.

قلت: هذا يُفسر الأمور.

دخل "أبو رشيد" الحوار وكان عابسَ الوجه فقال: هذه فلسفة لا تبرر عدم مبالاة هذا الأفغاني الضاحك بآلام أخيه، فالحقيقة الظاهرة أن هذا الضاحك قاسي القلب، ولعل ذلك من أثر الأسلحة الملعونة التي يحملها مع رفاقه.

قال "حمزة" بدهشة : أتقول أسلحة ملعونة، أم أني أخطأت السمع؟

قال" أبو رشيد": لم تُخطئ السمع، ألم ترَ الأسلحة والذخائر التي سقطت مـــن البغـــل الميت؟

قال "حمزة": بلى.

قال "أبو رشيد": كُتب عليها أنها صناعة أمريكا.

ساد صمت قصير، ثم قال "أبو يزيد": وماذا في ذلك، أمريكـــا تســـاعد المجاهـــدين بالأسلحة وهذا أمر مشهور؟

قال "أبو رشيد": ولماذا تساعد أمريكا المجاهدين؟، هل شغفتهم حبًا وهي راعية دولـــة اليهود التي تريد محو الجهاد من الإسلام؟

قال"حمزة": لعله اتفاق المصالح، فالمجاهدون يريدون تحرير أرضهم من الروس، وأمريكا تريد حصر نفوذ الروس في العالم.

قال"أبو رشيد": أحسب أن احتلال الروس لأفغانستان أفضل عند أمريكا من حكـــم إسلامي في أفغانستان يؤمن بالجهاد ويسعى لتحرير كل أرض مُحتلة.

قال "حمزة": كأنك تقول أن أمريكا تخطط لمنع قيام حكم إسلامي في أفغانستان.

قال "أبو رشيد" : هذا أظهر من الشمس، ومن البلاهة أن نظن بأمريكا تقديم رصاصة واحدة لنصر جهاد إسلامي أو مجاهدين قد يهددون إسرائيل يومًا.

قال "أبو يزيد": ولكن دعم أمريكا للمجاهدين ينصر الإسلام رغم أنفها.

وهنا شعرت أني أرى الجزء الناقص من صورة الوضع في أفغانستان، فقلـــت: بـــدا لي الآن أن أمريكا تريد تسخير المجاهدين لطرد الروس بعد أن علمت أن اتحادهم بعيـــد المنال، فهي لا تخشى شوكة فرق متناحرة، وربما نرى هذه الفرق تُقسِّم أفغانســـتان إلى دويلات إن قُدِّر لها النصر.

قال "أبو رشيد": هناك مبدأ قديم في تاريخ الحروب هو (فَـــرِّق لتَسُـــود)، ويبـــدو أن أمريكا تتبع هذا المبدأ في أفغانستان.

قلت: ولعلها كذلك تدعم تفرق دولنا العربية كي تضمن السيادة على منطقتنا.

قال"أبو رشيد": غدًا ستسقط الأقنعة الخادعة وسيظهر الحق رغم أنف المُبطلين.

***

بعد صلاة الظهر عزم الأفغان على السير بجانب سفوح الجبال الصخرية تجنبًا لمخـاطر الألغام في هذه المنطقة، وتم إعداد مكان للأفغاني المُصاب على ظهـر أحـد البغـال، ومضينا دون أن يصادفنا أحد ليرشدنا إلى إحدى المدن أو القرى المعروفة، وكان يرتد إلينا من الجبال صدى إطلاق صواريخ وانفجارات بعيدة.

وبعد عدة أيام سمعنا أصوات إطلاق نار تأتي من مكان قريب ولكن الصخور حجبت عنا رؤيته، فتوقفت القافلة وأسرع نفر من الأفغان لاستطلاع الأمر، ثم عادوا وأخبرونا بأن فرقة عسكرية حكومية تحاصر قرية ويبدو أنها تبحث عن بعض المجاهـدين فيهـا، وقالوا إن القوة تتكون من أربع عربات عسكرية محملة بالجنود والأسلحة وعليها شعار حكومي، ثم بدأ رفاقنا الأفغان يتشاورون إلى أن عقدوا العزم مهاجمة القوة الحكوميـة عندما تشرع في الانصراف كي يضمنوا اجتماع كل الجنود في العربات العسكرية، إذ أن بقاء بعض الجنود في مكان بعيد قد يمكنهم من مهاجمتنا من حيث لا نحتسب.

كان "حمزة" أشدنا اعتراضًا على هذا القرار، وبدأ يدور بينه وبين الأفغان حوار تكفل فيه المترجم بالبيان، فقال "حمزة": قد يأخذ الجنود معهم بعض الأسرى وإذا هاجمنـاهم وهم عائدون قد نقتل الأسرى معهم.

فرد أحد الأفغان: هم لا يأخذون أسرى ومن يجدوه يقتلوه.

فقال "حمزة": إذن علينا مهاجمتهم الآن إنقاذًا لمن قد يُقتل على أيديهم.

فقال الأفغاني: لو شرعنا في مهاجمتهم الآن سيطول الاشتباك، وسيطلبون فريق دعـم باللاسلكي، ولن نستطيع مواجهتهم مع الفريق الجديد.

فقال "حمزة": أتريدنا أن نتركهم ليفسدوا في القرية ويهلكوا الحرث والنسل؟

فقال الأفغاني: إما هذا وإما أن نهلك جميعًا.

فقال "حمزة" بغضب، وأصوات طلقات الرصاص تصلنا تترا : عليكم أن تجدوا مخرجًا، فلن نقف هكذا كالعاجزين ونترك الرصاص ليحصد أرواح إخواننا.

فقال الأفغاني: اذهب أنت ورفاقك فقاتلوهم، ولا تلوموا بعدها إلا أنفسكم.

فأطبق "حمزة" شفتيه بغيظ ولم يرد.

وضعنا خطة لمهاجمة العربات، فتسلح خمسة من الأفغان بقاذفات الآربيحـــي المضـــادة للدبابات والتي كان يحملها أحد البغال، بينما تسلح الآخرون ومن بينهم نحن العـــرب برشاشات الكلاشنكوف، طلبنا إلى المترجم أن يرافقنا كي يمكننا من التواصـــل مـــع الأفغان عند الهجوم فأبى محتجًا بعدم أهليته للقتال، تقدمنا مسافة تقارب ميلاً، وتربصنا بالعربات خلف الصخور على جانب الطريق الممهد الذي تسير فيه الآليات العسكرية، بينما بقي بعض الأفغان مع المترجم لحراسة القافلة.

وعندما أوشكت الشمس على المغيب بدأت العربات تتحرك، فقبضت على ســلاحي بقوة، وتسارعت أنفاسي، وعندما أصبحت العربات في مرمى نيراننا صاح أحد الأفغان فانطلقت ثلاث قذائف آربيجي في وقت واحد صوب العربة الأولى فأصابها قـــذيفتان منهم، فانفجرت واشتعلت فيها النيران وخرج منها جندي والنيران تمسك بثيابه، بينما توقفت العربات الثلاث الأخرى بعد أن قطعت العربة المحترقة طريق الســـير، وقفـــز الجنود من العربات في كل اتجاه وبعضهم أطلق نيرانه علي مكاننا ارتجالاً دون تصويب، ولكننا أطلقنا رصاصات أكثر من ثلاثين كلاشنكوف لتقتنص الجنود الفارين، كنـــت أشعر أني تحولت إلى آلة تفقد المشاعر، إذ توجهت كل طاقة عقلي إلى إحكام التصويب على الجنود فلم يبق فيها مكان لأي أحساس بالخوف أو القلق، وبعد برهـــة ســـكن المكان تمامًا، مكثنا قليلا نراقب الجنود وكلما أبدى أحدهم حركة أسكته دفعـــة مـــن الرصاص، كان المشهد يصيبني بالغثيان والاشمئزاز، ولكني دافعت ذلك الشعور.

صاح أحد الأفغان في رفاقه بقولٍ لم أفهمه، فتقدم ثلاثة منهم صوب العربـــات ومـــن خلفهم تنطلق رصاصات عشوائية لتأمين تقدمهم بإرهاب أي جندي حي فلا يفكر في إطلاق النار على المتقدمين، وجعل الثلاثة يطلقون رصاصة على رأس كل جندي حتى تيقنوا من موقم جميعًا، وهنا انقض كل الأفغان على العربات وجثث الجنود كـــأهم في سباق لجمع الغنائم، فأخذوا كل ما يمكنهم حمله من أسلحة الجنود وذخائرهم ونقودهم وأحذيتهم، وكان كل أفغاني يستأثر وحده بما وصلت إليه يداه، ثم انتقلوا إلى العربات وشرعوا يفكون أجزاءها ليأخذوها كغنائم، ثم نشب خلاف بينهم في تقســـيم أجـــزاء العربات، وتطور الخلاف إلى صياح وزجر ومدافعة بالأيدي، وكنت أراقبـــهم وقـــد

أذهلني حالهم، فقلت "لوليد" الذي كان الأقرب إليَّ: هل سيتقاتل هــؤلاء طمعًــا في الغنائم؟

فقال: أحسبهم يغلون.

قلت: يبدو أنهم هاجموا العربات من أجل المغنم.

قال: الله أعلم بنيتهم، سأدعو المترجم كي يطالبهم بنصيبنا من الغنائم.

نظرت إلى "وليد" متعجبًا، فتبسم ابتسامة توحي أنه كان يهزل، فقلت له: فلنذهب إلى القرية عسى أن يكون أهلها بحاجة إلى إغاثة.

فعدنا إلى القافلة وأخبرنا المترجم أن المعركة انتهت، وسألناه أن يأتي معنا مصاحبًا بعض الأفغان الذين يحرسون القافلة لنستطلع حال أهل القرية، فأبى الأفغان القــدوم معنــا، وهرعوا جميعًا إلى مكان العربات لإدراك نصيبهم من الغنائم، فتبادلنا النظرات متعجبين وآثرنا الصمت على الغِيبة.

ذهبت مع المترجم و"حمزة" إلى القرية وكان الليل قد دَغَش عليها، فسرنا على ضــوء مصباح كهربي محمول، وتجولنا في القرية فكانت تشبه مأتم حزين، أكثر البيوت أبوابها مفتوحة أو مكسورة وفيها ثقوب من أثر طلقات الرصاص، ويصلنا من داخل بعــض البيوت عويل النساء وتأوهات الرجال المصابين، بعض البيوت اشتعلت فيها الــنيران، واجتمع حولها بعض أهل القرية يحاولون إخماد ألسنة اللهب قبل أن تدفعها الرياح إلى بيوت أخرى، رأينا أرغفة خبز متناثرة على الأرض، وأطفال كثر يبكون في الطــرق، وجثث ملقاة، وطفل يصيح ويهز جثة رجل ميت كأنه يدعو الروح إلى العودة، وجثة رجل آخر يقبض بقوة على خنجر ملوث بالدماء يكاد يحكي لمن يراه آخــر لحظــات نضال صاحبه، ورجل يزحف على بطنه مستندًا إلى ذراعيه بعد أن أُصــيبت رجــلاه، وامرأة تبحث بين القتلى والمصابين عن زوجها أو ابنها أو أخيها.

عُدنا عدْوًا إلى القافلة، فالقرية كانت بحاجة إلى مساعدة على الفور، وكــان رفاقنــا الأفغان قد انتهوا من تقسيم الغنائم وعادوا أيضًا إلى القافلة، وكانوا يتأهبون لمواصــلة المسير، فأخبرهم المترجم أننا سنحمل إلى القرية بعض الأغذيــة والملابــس والأدويــة وأدوات الإسعافات الأولية، فرفضوا، وأصروا على الرحيل، وما كان حجتهم إلا أن

زعموا أن تأخُّر عودة عربات الفرقة العسكرية التي هاجموها سيثير القلق ويدفع الجيش إلى إرسال فرقة أخرى لاستطلاع الأمر في الصباح، وربما يكون أحد القتلى قد استنجد باللاسلكي قبل موته فتدهمنا الفرقة الآن.

أثار ردهم حفيظة "حمزة" فقال لهم: لقد دخلنا أفغانستان لإغاثة الذين ذاقوا ويلات هذه الحرب، وما كنا من الذين يؤثرون أنفسهم فيفرون.

فقال أحد الأفغان بهدوء : نحن نريد حماية القافلة من هجوم مُرتقب، فلا تحرَّك الشفقة بهؤلاء إلى فعل قد يكون فيه هلاكنا.

فقال"حمزة": لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، ونحن نصر على البقاء ونجدة أهل القرية، أما أنتم فيمكنكم التربص بمن سيأتي ومباغتته بالهجوم.

دار بين الأفغان حوار قصير، ثم أعربوا عن موافقتهم على قول حمزة، وكان يلزمنا أَخْذ عدد من البغال الحاملة لمواد الإغاثة إلى القرية المنكوبة، فاختلفنا مع الأفغان في عدد البغال، إذ أردنا أخذ خمسة عشر بغلاً، وأرادوا أن نأخذ ثلاثة ولا مزيد، وبعد جدال وزجر ونهر زادت فيه حدة الانشقاق بيننا، أخذنا تسعة بغال، واشترط الأفغان أن تُخصص البغال الثلاثون الباقية لجبهتهم، وقالوا إنهم لم يقطعوا كل هذه المسافة ليعودوا بأقل من ذلك، فاضطررنا إلى الموافقة، وتوجهت مع رفاقي العرب والمترجم والبغال التسعة إلى القرية، وأبى الأفغان جميعهم مشاركتنا في نجدة أهل القرية، فلم يصاحبنا منهم أحد، وزعموا أنهم يريدون البقاء لحماية القافلة والتربص بمن سيأتي من قوات الحكومة.

كنا نسير صوب القرية صامتين، وعند وصولنا واجهتنا عقبة جديدة، فأهل القرية كانوا يتحدثون لغة الباشتو، وكان المترجم يتحدث الفارسية ولا يجيد لغة الباشتو، فشق علينا اكتساب ثقة أهل القرية، ولم يتيقنوا أننا جئنا لمساعدتهم إلا بعد محاولات مضنية لشرح الأمر، ثم قضينا الليل كله نوزع الملابس والبطاطين والغذاء ونداوي الجرحى، وكان "أبو يزيد" قد تلقى تدريبًا طبيًا على نزع طلقات الرصاص من الجسد وتطهير الجروح، ولكن عدد المصابين كان كبيرًا، وبعضهم لم يطق ألم نزع الرصاص فكنا نضطر إلى حقنه بمخدِّر، ومع شروق الشمس، كان قد بلغ بنا الجَهْد ما بلغ،

ونفدت أحمال البغال التسعة قبل أن نمر بعُشر القرية، فكنا كقطرة ماء على لسان ظمآن لا نروي عطشًا، فشعرنا بضعفنا وعجزنا، وحملنا التعب على النوم في أحد البيوت.

فلما أسفر الضحى استيقظنا على صوت صائرات يكاد يشق عنان السماء، وبعد دقائق بدأت الطائرات تقصف المكان الذي تقف فيه قافلتنا، فمكثنا خائفين ننتظر انتهاء الغارة وندعو الله أن ألا يمتد القصف إلى القرية، وتوقف القصف فجأة، فانتظرنا دقائق ثم هرعنا إلى مكان القافلة، فلما وصلنا وجدنا أكثر البغال قد قُتل ودُمِّر ما عليه من أثقال، ومن حول البغال رفاقنا الأفغان يحاولون جمع ما بقي من أحمال البغال، وبعد وقت قصير عاد صوت الطائرات فأسرعنا نلوذ بمكامن خلف الصخور، وبدأ القصف مرة أخرى، وكانت قذائف الطائرات تسقط حولنا، فتتناثر منها شظايا، وتثير غبارًا ودخانًا، شعرت أن الموت قريب مني، فأسبلت جفوني ونطقت الشهادة، ومرت أحداث حياتي في عقلي، وتوقفَت يوم أوصاني "أحمد عاطف" عند مصرعه بالدعاء له كأني ابنه، فوبَّخت نفسي لنسياني تلك الوصية، وجعلت أدعو له حتى توقف القصف وابتعدت الطائرات، فخرجت من مكمني، وأدهشني أن أرى الأفغان يخرجون من خلف الصخور دون أن يُصاب أحدهم بأذى، وقد شُغلوا بتبادل اللوم والعتاب، والتحسر على أحمال البغال المُدمرَّة.

فلما انجلى الغبار والدخان لم أرَ "أبا يزيد" بين الواقفين، فسألت عنه "حمزة" و"وليد" و"أبا رشيد"، فنفوا رؤيته بعد القصف، فشرعنا نبحث عنه خلف الصخور، وفجأة صاح "أبو رشيد" مناديًا إيانا، كان يقف كصنم جامد يتأمل شيئًا خلف صخرة ضخمة ، فهرعنا إليه وهالنا ما رأيناه، كان "أبو يزيد" وثلاثة من الأفغان قد تحولوا إلى أشلاء بعد أن سقطت إحدى قذائف الطائرات على مكانهم، وتخضبت الصخور بدمائهم، ساد سكون رهيب كأنما شُلَّت ألسنتنا، ولم أتحمل النظر إلي الأشلاء، فرفعت بصري إلى السماء، وخرج من صدري زفرة مرتعشة.

لم نتمكن من دفن قتلانا، فالأرض من حولنا كانت صخرية ولا يمكن الحفر فيها، فجمعنا أشلاءهم ووضعنا عليها الصخور الصغيرة حتى حجبتها.

بعد هذه الأحداث قررت مع رفاقي العرب والمترجم العودة إلى بيشاور، أما رفاقنا الأفغان فآثروا المضي إلى جبهتهم بعد أن جاءوا بالبغال التسعة من القرية لتحمل غنائمهم وما بقي من أحمال البغال الميتة.

رحل الأفغان، ولم نكن نعرف الطريق إلى باكستان، فعدنا إلى القرية عسى أن نجد من يرشدنا، فوجدنا بعض الذين احترقت منازلهم يتأهبون للهجرة إلى باكستان، فاتخذنا سبيلنا معهم، ووصلنا بيشاور بعد أسبوعين، وعدنا إلى مخيم الأيام الخوالي، وكان قد اختفت منه وجوه وحلَّ محلها وجوه أخرى، أكثرها وجوه مستبشرة بأداء فريضة الجهاد الغائبة، وجوه هاجر أصحابها بعد تحريض العلماء ومساندة المسلمين والحكومات والأمريكان، وشعرت أني أرى أحد الفصول الكالحة في عبث تحالف الأضداد.

(٢)

قضيت مع "حمزة" و"وليد" أيامًا في المخيم نشعر بتثبيط عميق أوجده خروجنا الأول إلى أرض أفغانستان، ثم قررنا قَصْر عملنا على المشاركة في إغاثة اللاجئين الأفغان الذين بلغ عددهم مئات الألوف في مخيمات بيشاور، وكانوا يزيدون كل يوم بعد أن كثر توافُد الفارين من جحيم القتال في أفغانستان، وكنا نقوم بتوزيع مواد الإغاثة على اللاجئين، وإن كان لهم شكوى رفعناها إلى القائمين على أمر مخيماقم.

وبعد صلاة عشاء أحد الأيام فوجئنا "بأسامة" يخرج مع المصلين من مسجد المخيم، وكان قد مر عام كامل على افتراقنا لم يصلنا فيه شيء من أخبار "أسامة"، فسعدنا بلقائه، وعانقناه بشوق، وحمدنا الله على عودته سالمًا، وانهمرت عليه أسئلتنا عما حدث له في العام المنصرم، فقال "أسامة": ليس عندي الكثير أقمت مع بعض المجاهدين في إحدى القرى القريبة من "جلال أباد" وكنا نخرج كل عدة أسابيع لشن هجوم بالصواريخ وقذائف الهاون على أحد معسكرات الجيش أو قواعد الروس العسكرية ثم نفر هاربين.

فقلت: أحسبك شهدت شيئًا من نزاعات الأفغان وخلافاقم.

فقال بدهشة : وما يحملك على ذلك الظن السيئ؟

قلت: لعله حدسي.

قال: لم يُخطئ حدسك، إذا قُتل أمير المجاهدين في تلك القرية فتنازعوا على الإمارة من بعده.

قلت: سبحان الله، لم يترك هؤلاء الأفغان بابًا للنزاع إلا ولجوه.

قال: وقد ولجت معهم أحد تلك الأبواب، فتنازعنا، وأمروني بمفارقتهم.

فدخل "وليد" الحوار قائلاً: وفيم تنازعت معهم؟

قال "أسامة": في أمور كثيرة، فهم يسيئون الصلاة وينقرون ركوعها وسجودها، ولا يجهرون بالتأمين خلف الإمام، ويتعصبون للمذهب الحنفي تعصبًا يصل إلى الحكم بابتداع المذاهب الأخرى، ويكرهون "محمد بن عبد الوهاب" خصوصًا والدعوة

السلفية عمومًا، وبعضهم يحملون معتقدات شركية كقدرة الأموات على مد يد العون لهم، وغير ذلك الكثير.

فقال "وليد": ولماذا لم تردوا التنازع إلى الله ورسوله لكي يُفصل النزاع؟

قال "أسامة": رد التنازع إلى الله ورسوله يلزمه العلم بأمر الله ورسوله، وهؤلاء الأفغان عوام يجهلون، وأعاجم لا يفقهون لله ورسوله حديثًا، فالحق عندهم هو ما وجدوا عليه آباءهم، ومن جاءهم بغير ذلك فهو ضال مبتدع، لذا وجدت سبيل فصل النزاع معهم مغلقًا، ولما زاد الانشقاق بيننا طردوني من ديارهم.

ثم استطرد "أسامة" قائلاً: سأعود إلى مصر لا أحمل غير الندم.

فقال "حمزة": لا تيأس يا رجل، فالأمل في إصلاحهم لم يمت.

فقال "أسامة": وماذا عسانا أن نفعل؟

ساد الصمت، كان السؤال يسيرًا، ولكن جوابه عسير، وظل السؤال يلح على عقلي: ماذا عسانا أن نفعل لإصلاح حال الأفغان؟، ولم أنم في تلك الليلة، وقضيت الليل أفكر فيما يمكننا أن نفعله لإصلاح حال الأفغان، ومع أذان الفجر كان عقلي قد استقر على أمر ما.

جلست مع "حمزة" بعد صلاة الصبح، وقلت له: لقد مكثت الليل أبحث عن جواب سؤال "أسامة" عما يمكننا فعله لإصلاح حال الأفغان.

فقال: وهل وجدت جوابًا؟

قلت: نعم فيما أحسب، ففساد حالهم قام على الجهل، فإن حطمنا جهلهم واستبدلنا العلم بذلك الجهل، كان في ذلك صلاحهم، وهم قوم أقوياء متعصبون، والعلم سيحملهم على التعصب للحق، فيصيرون سيوفًا ماضية تنصر هذا الدين.

قال: لا تسبح في بحار الوهم، هذا الأمر يفوق طاقة عدة آلاف من العرب المتطوعين للجهاد.

قلت: سنوجه طاقتنا إلى تعليم القادة ورءوس الفرق والقبائل، وهؤلاء سيقومون بإرشاد أتباعهم.

قال: وكيف سنتجاوز حاجز اللغة؟ وإذا تجاوزناه فهل تحسبهم سينقادون إلى تعليمنا؟

قلت: يمكننا تعلم لغات أهل أفغانستان، ودعنا نرتقب ذلك الأمل، فهو بصيص النور الوحيد في ذلك الدرب المظلم الذي يسير فيه الأفغان.

قال: هذا الأمر يلزمه تخطيط جيد لا يقوم له إلا القائمون على أمر العرب هنا.

قلت: فلنتلق بهم ونطلعهم على ما رأيناه.

لم يتحمس "حمزة" لفكرتي في البداية، ولكنه أظهر قبوله لها، فالتقينا بقادة المتطوعين العرب واحدًا بعد الآخر، فأخبرونا أنهم يبذلون جهودًا حثيثة لفض نزاع الأحزاب الأفغانية، وأنهم يحرصون على جمع قادة تلك الأحزاب في مجالس لإصلاح ذات بينهم، إذ لم يغب عن قادة المتطوعين العرب أن ذلك النزاع يُنذر بعواقب وخيمة، ومع أن أكثر قادة الأحزاب الأفغانية كانوا يريدون الصلح إلا أنهم كانوا يقيمون في بيشاور ولا يستطيعون التوجيه المباشر لأمراء جبهاتهم المقاتلة داخل أفغانستان، إذ أن سبل الاتصال انحصرت في الرسل والقوافل القادمة من جبهاتهم.

وبعد مشاورات عديدة مع قادة المتطوعين العرب، وضعنا خطة بُنيت على قيام عشرات العرب بتعلُّم لغات الأفغان مع تسلحهم بالعلم الشرعي، ثم يتم توجيههم إلى جبهات القتال داخل أفغانستان في قوافل تحمل الأسلحة ومواد الإغاثة لكسب مودة أمراء هذه الجبهات، على أن يكون هؤلاء العرب رسلاً من قادة الأحزاب الأفغانية المقيمين في باكستان، وقد بُعثوا لفض النزاع على أساس شرعي ودعوة أمراء الجبهات إلى الاعتصام بحبل الله والتعاون وتحذيرهم من مغبة التفرق.

وبدأ تنفيذ الخطة، وتحمس لها كثير من العرب، فاخترت مع "حمزة" و"وليد" تعلم لغة الباشتو، وهي أكثر اللغات شيوعًا في أفغانستان، فأقبلت بقوة على التعلم، أما "أسامة" فعاد إلى مصر يجر قنوطه، وعاودني أمل قيام حكم إسلامي يبدأ في أفغانستان ويمتد ليجمع المسلمين في خلافة إسلامية واحدة، ذلك الأمل القديم الذي زرعه في قلبي نقاش منذ أكثر من عشر سنوات مع "أحمد عاطف"، ولم أحسب يومها أن ذلك الأمل سيكون سببًا في وجودي في باكستان بعد هذه السنين، وكم من فكرة عابرة ساقت صاحبها إلى طريق أوصله إلى مجرى جديد لحياته، فهذه سنة الحياة، وهكذا قد تتبدل الأحوال ليقضي الله ما يشاء.

كنا نتلقى دروس لغة الباشتو على يد مقاتل أفغاني قديم تجاوز الأربعين من العمر، وكان من هؤلاء الأفغان القليلين الذين يجيدون اللغة العربية، وذات مساء بعد انتهاء الدرس بادرنا المعلم قائلاً: ما هدفكم من تعلُّم لغة الباشتو؟

فأخبره أحد الحاضرين – ويُدعى "هاشم"– بأمر خطتنا لفض نزاع أمراء الجبهات المقاتلة، فقال المعلم متعجبًا: أهذا هدفكم الوحيد من تعلم لغة الباشتو؟

فأجابه "هاشم": نعم، أترى في ذلك بأسًا؟

قال المعلم: وهل وافق قادة الأحزاب الأفغانية السبعة على خطتكم؟

فدخلت الحوار قائلاً: وكيف يكون لهم ألا يوافقوا، ونحن سنكون رسلهم إلى أمراء الجبهات المقاتلة!

قال المعلم: هذه خطة لا يقوم لها إلا المتوهمون غير العالمين بحقيقة الأمور.

فقال"هاشم": نريد زيادة بيان.

فقال المعلم: لقد قاتلت في أفغانستان أكثر من عشر سنوات حتى بُتر ذراعي في إحدى المعارك، وأكثر أصدقائي ماتوا، وقد علمت من طول عهدي بالقتال أن قادة الأحزاب الأفغانية المقيمين في بيشاور لا يعبؤون بالاتحاد بل لعلهم يكرهونه لما فيه من إنقاص سلطتهم المطلقة على أحزابهم، وقد رأيت بعض هؤلاء القادة يطلقون الشائعات الكاذبة على الأحزاب الأخرى لتنفير الأفغان منها.

فقلت مقاطعًا: ولكنهم أظهروا ترحيبهم بالاتحاد.

فقال: لو أرادوا الاتحاد لاتحدوا منذ زمن بعيد، أتحسبهم ينتظرون ضيوفًا مثلكم ليفضوا نزاعهم؟، إنهم يخدعونكم.

قال "هاشم": ولماذا يخدعوننا؟

قال المعلم: أنتم تفتحون عليهم معين لا ينضب من الأموال والمساعدات، فيستمدون منها قوتهم، ويشترون بقدر كبير منها ولاء القبائل، فنرى كثيرًا من القبائل توالي القائد الذي يغدق عليهم الأموال، ولا تفرِّق في ذلك بين حزب أفغاني أو الجيش الحكومي أو الروس، وصراع انتزاع ولاء القبائل بين هؤلاء القادة لم ينتهِ إلى يومنا هذا.

فقال "هاشم": نحن نأخذ بظاهر الناس ولا نفتِّش في صدورهم، وما رأينا من قادة الأحزاب إلا الحرص على الوحدة، ولعل الأيام تكشف لك خطأك في الظن بهم.

قال المعلم: غدا ستثبت لك الأيام حقيقة أمرهم.

شعرت أن هذا المعلم يُضمر حقدًا على قادة الأحزاب الأفغانية لسبب مجهول، أو لعلي لذت بذلك الشعور خوفًا من صدمة جديدة، إذ لم أحاول التحقق من صحة ما قاله، كأني آثرت الأنس بجهلي، فهذا الجهل قد يورث التمسك بأمل زائف، ويدفع الحسرة إلى أمدٍ بعيد.

***

كان يُوجَّه جزء كبير من التبرعات التي تصلنا من المسلمين إلى إنشاء المعاهد الدينية لتعليم اللاجئين الأفغان، فحرصت مع الذين تطوعوا لتعلم لغات الأفغان على التدريس في هذه المعاهد لتحقيق غايتين، أما الأولى فهي أن نساهم في تأسيس جيل أفغاني جديد لا يعرف التعصب الجاهلي لمذهب أو عرق أو حزب أو قبيلة، وأما الأخرى فهي أن نجيد لغات الأفغان قبل التوجه إلى أمراء الجبهات لكي نستطيع إحسان البيان لهم.

وبعد عام من دراسة لغات الأفغان وعام آخر من التدريس في المعاهد الدينية أصبحنا نجيد اللغة الجديدة، وكان ذلك في نهاية عام ١٩٨٨، وكنا على استعداد للتوجه إلى أمراء جبهات القتال الأفغانية وفق الخطة التي وضعناها قبل أكثر من عامين، ولكن الأحداث تسارعت في ذلك الوقت، فأرجأنا تنفيذ خطتنا حتى تستقر الأمور، إذ أعلن الروس قرار الانسحاب من أفغانستان، وتركوا الحكومة الشيوعية الموالية لهم لتقاتل وحدها، وقرر قادة الأحزاب الأفغانية تشكيل حكومة مؤقتة للمجاهدين اعترفت بها بعض الدول على رأسها أمريكا، كما زادت وتيرة الاقتتال بين الأحزاب الأفغانية، وارتفعت حدة الخلاف بين قادتها، وأدى ذلك إلى انشقاق في صف حكومة المجاهدين المؤقتة، فسقط قادة الأحزاب الأفغانية في أول محاولة حقيقية للاتحاد، وهنا علمت أن مُعلِّم لغة الباشتو كان يرى ما لا نراه، فانهارت خطتنا قبل أن نشرع في تنفيذها، ومات الأمل مرة أخرى.

ثم قُتل بعض العرب الذين قاموا على أمر خطتنا لفض نزاع الأفغان، قتلتهم أيدي مجهولة كأنما تقول لهم: (عفوًا أيها العرب لقد انتهى عملكم عند هذا الحد).

كان الإحباط شديدًا هذه المرة، إحباط أناس أنفقوا وقتهم وجهدهم لتحقيق غاية ثم وجدوا ما أنفقوه صار هباءً منثورًا، فعاد أكثر أصحاب خطة فصل النزاع إلى بلدانهم، وكان "وليد" مع العائدين، أما أنا و"حمزة" فآثرنا مواصلة التدريس في المعاهد الدينية للاجئين الأفغان، وإرجاء العودة إلى مصر حتى تسقط الحكومة الأفغانية الشيوعية ويعود اللاجئون إلى أفغانستان، وقد ظهر أن سقوط الحكومة الشيوعية واقع بلا ريب، إذ توالي سقوط المدن في أيدي الأحزاب الأفغانية.

***

حدث ما توقعناه وسقطت كابول العاصمة في أيدي المجاهدين الأفغان في أحد أيام عام ١٩٩٢، ولم يدم السلام طويلاً، إذ انقسمت الأحزاب الأفغانية إلى فريقين، ثم وجَّه كل فريق طاقته إلى قتال الفريق الآخر، فسقطوا جميعًا وما كانوا في نصرهم على الروس من الغالبين، وبدأ المتطوعون العرب يعودون إلى بلادهم، وبعضهم بقي في باكستان، وآخرون شاركوا أحد الفريقين في القتال، وأصبح المتطوعون العرب شيعًا وفرقًا، ولعل ذلك من أثر غياب القيادة الواحدة.

بدأت أعد العدة مع "حمزة" للعودة إلى مصر، وتذكرت ابني "غريب" الذي نسيته في خضم الأحداث، وشعرت بالأسف لأني لم أعد إلى مصر لرؤيته خلال السنين الماضية.

وذات ليلة وجدت "حمزة" يمسك برسالة من مصر ويتنهد بضيق، فجلست بجواره، وسألته: مالي أراك حزينًا؟

فقال: وصلتني هذه الرسالة من أحد الإخوة في مصر، وهي تنطوي على خطب خطير، إذ ينصحني بعدم العودة، لأن العائدين من أفغانستان يُسجنون، وقد اعتقل "وليد" منذ عدة أشهر ولا يعلم أحد مكان سجنه.

فقلت باضطراب: لعل هؤلاء الإخوة فعلوا شيئًا يُحرِّمه القانون المصري التعس.

فقال: ما فعلوا شيئًا، وما كان جُرمهم إلا أن هاجروا لنصرة المجاهدين.

قلت: لقد أيدت الحكومة المصرية هذه الهجرة، فماذا طرأ؟

قال: لست أدري، لعلها أيدت الهجرة من أجل خدمة مصالح الأمريكان، والآن خرج الروس من أفغانستان وسقطت علَّة التأييد.

لذت بالصمت هنيهة، ونظرت إلى الأرض بقلب منكسر، ثم قلت بحزن: يبـدو أننـا سنبقى غرباء في هذه الأرض إلى أن نموت.

ساد صمت طويل، ثم قطعته قائلاً: هل تذكر يوم أبشرتني بثورة إسلامية قبـل مقتـل الرئيس المصري عام ١٩٨١؟

تبسم "حمزة" وقال: نعم.

قلت: في ذلك اليوم دعوت الله أن يقضي بتحقق بشارتك وأن تكون هذه الثورة بداية إقامة خلافة المسلمين الجامعة لهم تحت إمارة إمامٍ واحدٍ، فلما قُتل الرئيس وأُخِـذنا إلى السجون شعرت أننا كنا أغبياء أن ارتقبنا تلك البشارة.

لم يُعقِّب "حمزة"، فقلت: وعندما دعوتني مع "وليد" إلى الجهاد في أفغانستان، رجع إليَّ أمل إقامة الخلافة، وكثير من العرب الذي جاءوا للجهاد لم يحملهم إلا ذلـك الأمـل على الهجرة إلى هنا، فلما رأيت نزاع الأفغان ودعم أمريكا لهم، شعرت بغبائنا مـرة أخرى.

وواصلت الحديث قائلاً: و"جماعة التكفير والهجرة" التي عرفني إليها "أحمـد عـاطف" كانت صورة مشوهة لخلافة إسلامية تفقد أركانها، فشهدت بغباء أصحابها.

ثم ارتفع صوتي قائلاً: ومنذ أيام قام فريق من العرب هنا بتأسيس خلافـة إسـلامية لا أرض لها بعد أن يئسوا من إقامتها على يد الأفغان، وهم الآن يحاولون إكـراه النـاس على مبايعة إمامهم بغباء قلما يأتي الزمان بمثله.

ثم صحت بأعلى صوتي: فأخبرني لماذا لا يجد أمل قيام دولة الخلافة ملاذًا غير عقـول الأغبياء في هذا الزمان، ثم يتجرعون مرارة غبائهم سنين طويلة؟

لم يرد "حمزة"، ونظر إليَّ بإشفاق.

***

كنت أشعر أني حُطام إنسان سقط من قافلة الزمان في عصر يغشاه التِّيه والهوان، فهـا أنا معلَّق في باكستان لا أستطيع العودة إلى مصر خشية السجن، وقد كنت أركـن إلى

أمل التكفل بحضانة ابني بعد أن تخطى عامه العاشر، فأجعل منه الأنيس والرفيق في أرض الغرباء، ويصرف عن صدري ما ينوء به من هشيم الآمال، ولكن حجبني عن ابني مفاوز وبحار، فإن قطعتها إليه تلقفتني أيدي الجلاوزة الأجلاف، وإن مكثت في باكستان تجرَّعت لهفة القلب ومرارة الصبر ووطأة الغربة وانقطاع السبيل إلى الأمل الأخير، وقد كنت متفائلاً أن ظننت أني بين هذين العذابين، إذ بدأت الحكومة الباكستانية تطارد العرب كمجرمين، ففررت مع "حمزة" إلى منطقة القبائل الواقعة على الحدود الباكستانية الأفغانية، وعشنا هناك كعابري سبيل نأخذ الصدقات من رجال القبائل ونُعلِّم أبناءهم اللغة العربية وقراءة القرآن.

***

وضعت الحرب بين الفريقين الأفغانيين أوزارها، إذ انشق منهما بعض الأحزاب واعتزلوا القتال، واتحدت الأحزاب الأخرى، ولم يكن اتحادهم بدافعٍ من علم أو دين، ولكنهم تحالفوا لقتال فريق ثالث خرج عليهم يقوده طلبة المعاهد الدينية، وقد جاء تحالفهم متأخرًا بعد أن وهنت قوتهم، فاستطاع الطلبة بسط نفوذهم على أكثر بقاع أفغانستان في ثلاث سنين وأعلنوا قيام (إمارة أفغانستان الإسلامية) وحل الأمن والسلام، ولم يكدِّرهما إلا اشتباكات قليلة مع الأحزاب المتحالفة ضد الإمارة.

***

بدأ كثير من المسلمين يتوافدون على أفغانستان بعد إعلان قيام الإمارة الإسلامية، واستوطن أكثرُهم مدينة قندهار الأفغانية، فحثَّني "حمزة" على الهجرة من منطقة القبائل إلى قندهار، فلما وصلنا قندهار وجدنا فيها كثير من رفاقنا القدامى الذين تعرفنا إليهم في بيشاور، وكانوا قد عادوا إلى أفغانستان وبعضهم اصطحبوا أسرهم معهم، وكان يملأ قلبي الحسرة كلما تذكرت أن كان لي أسرة لم يُكتب لها الدوام، وظلت نفسي تتوق إلى العودة إلى مصر لرؤية ابني، ولكن سيف السجن المسلط على رقاب العائدين منعني و"حمزة" من العودة.

كنت و"حمزة" نتميز بإجادة لغة الباشتو، فأتاحت لنا هذه الميزة تدريس اللغة العربية لأبناء الأفغان في مدارس قندهار، وخصصت لنا الإمارة مسكنًا وأجرًا كبيرًا، وأحببت

الحياة في المجتمع الجديد، فالحكم فيه كان الأقرب إلى الإسلام، وقد كان يعيبه التعصب للمذهب الحنفي بأخطائه، واتخاذ حدود أرض أفغانستان منتهى غايته، ووجدت في هذا المجتمع شيئًا يسيرًا من أمل دولة الخلافة، ذلك الأمل القديم الذي تلاعب بي ما يقرب من عشرين عامًا ثم قررت طمسه في عقلي لئلا أكون غبيًا، ولكن ها هـو يعـود الآن مداعبًا أفكاري على استحياء، وما يدرينا لعل هذه تكون بداية تحقق الأمـل، قـد لا نشهد تحققه في حياتنا، ولكن يكفينا أننا قد وضعنا لبنته الأولى للذين سيخرجون مـن أصلابنا فيتمون بناءه.

***

والآن في صيف عام ٢٠٠٠ تنتهي قصة ربع قرن من حياتي، وها أنا أقف عند نهايـة رحلة تقلبت فيها بين السعادة والشقاء، وهُتك أمامي الستر عن أحوال مفجعة لبعض الذين لقيتهم من أهل زماننا، وقد تعلمت من رحلتي أن أحيا ناظرًا إلى الحيـاة كـأني مسافر أو عابر سبيل، وتيقنت فيها أن الله تعالى وهبنا عقولاً لندرك بها الصواب فـلا نُفتن بالخطأ وإنْ زُيِّن لنا وأقبل عليه الناس، فإن أكثر الناس لا يعلمـون، ورأيـت في رحلتي أن غشاوة الأبصار قد تحجب الصواب دهرًا ولكنها لا تلبث أن تزول بـالعلم والتَّفكُّر، ولا سبيل إلى إدراك الصواب إلا باجتماعهما، فالعلم بدون تفكُّر كالجهل لا يأتي إلا بالتقليد والتعصُّب الجاهلي، والتفكُّر بدون علم يوقع في ظلمات من الـوهم، ومكابدة وطأة الصواب بعد إدراكه خير من سكينة يورثها التردي في غياهب التعصُّب أو الوهم.

وعسى الله أن ييسر وصول قصتي إلى ابني "غريب"، ليتعلم منها ما عجزت أن أرشده إليه، ويأخذ منها العبرة، فيكمل طريقة الشائك في زمان الغربة ولا تطـيح بسـفينته أمواج الجهل والفتن.

خاتمة

وُجدت الأوراق السابقة داخل حقيبة تحت أنقاض أحد المنازل المنهارة التي تعرَّضت لقصف الطائرات الأمريكية أثناء غزو أفغانستان عام ٢٠٠١، وكان مع الأوراق مصحف قديم كبير الحجم وبعض النقود وجواز سفر يحمل اسم "خالد عبد الله" وعقد زواجه وشهادة ميلاد ابنه وثوب طفلٍ شاب البياض لونه الأحمر، ولم يُعثر لكاتب الأوراق على أثر، ولعله يستأنف الآن رحلة شروده في أرض جديدة مجهولة.

تَمَّت